عودة طير

هتيبة طريف قصاب باشي

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

ⓒمركز الأدب العربي للنشر والتوزيع ، ١٤٤٦هـ

باشي ، قتيبة طريف قصاب
عُزَيْر. / قتيبة طريف قصاب باشي - ط٢. .- الدمام ، ١٤٤٦هـ
٢١٨ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/٤٠٨٥
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٤٥٥-٧٠-٨

مركز الأدب العربي
للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

servicesbook_eg
servicesbook_eg
servicesbookeg
www.adabbook.com.eg

مسؤول النشر للتواصل
00201120102172

دولة الإمارات العربية المتحدة

Aladab_UAE
Aladabu
Aadab UAE
Aladab_UAE
www.daraladab.ae

مسؤول النشر للتواصل
00971561767989

الموزعون

المملكة العربية السعودية

مركز الأدب العربي للنشر التوزيع
00966594447441

دار التكرده للنشر والتوزيع
00966566645932

الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر

جميع العبارات و الأفكار الواردة في الكتاب تعبّر عن وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر .

عُزَير

(مستوحاة من قصص حقيقية)

رواية

قتيبة طريف قصاب باشي

@ kutaiba_kb

Kutaiba kassab bashi

Kutaiba_kb

رسومات الكتاب: لمى الجمعة

الطبعة الثانية

١٤٤٦هـ-٢٠٢٤م

ذكر عامر حصنه، أبي أحمد جمال الحلبي الذي ولاه ما تضمنت هذه الرواية

ليس

الإهداء

عائلتي... زوجتي الحبيبة... المحبين الأوفياء...

إلى الغائبين الحاضرين في قلوبنا...

إليكم أكتب...

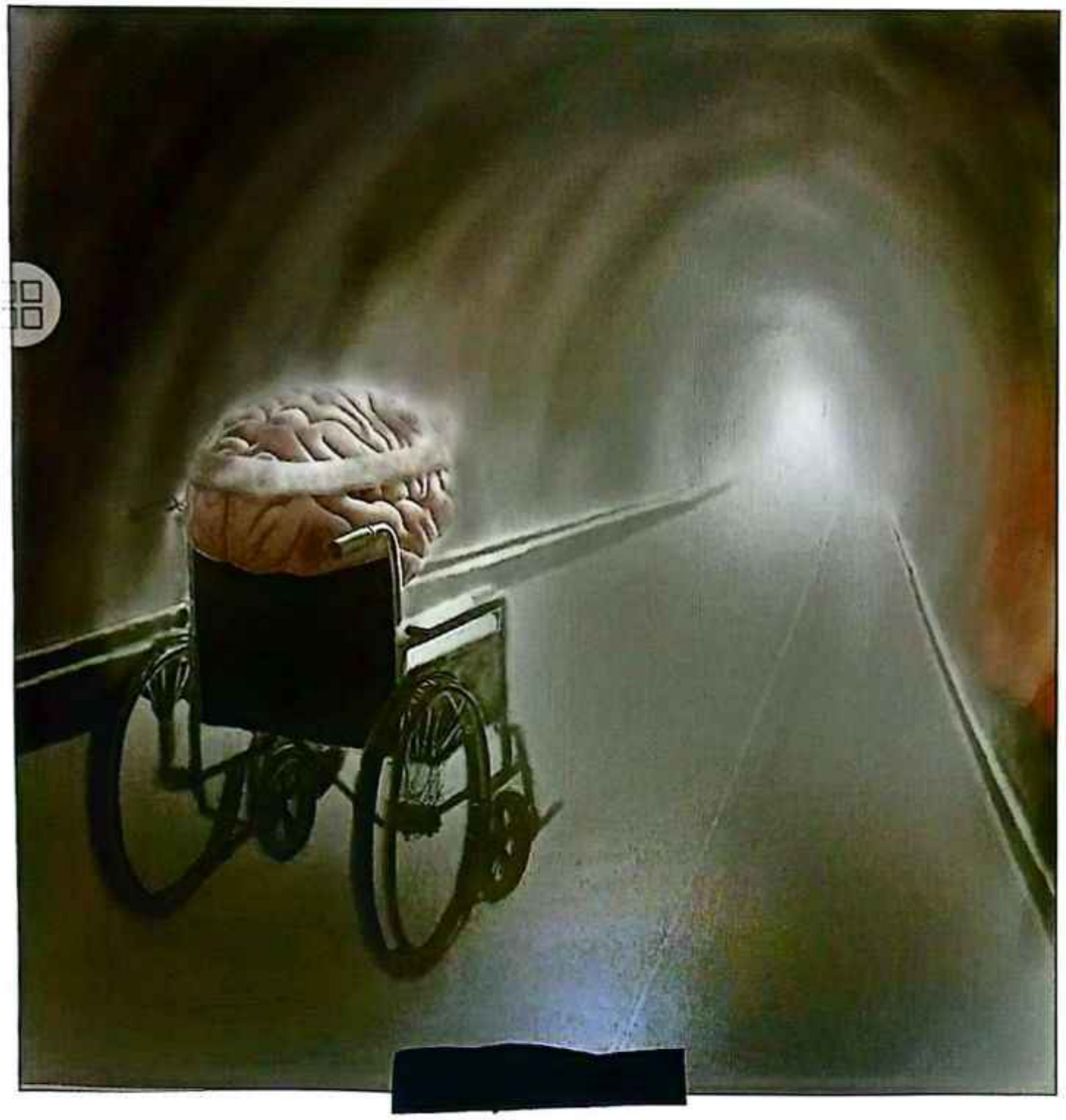

مقدمة خاصة

لِكُلّ منا ما يقلقه... لِكُلّ منا ما يؤلمه... لِكُلّ منا ما ينقصه...

كلَّ يومٍ نعيشه نعاني فيه الكثير... الكثير من الألم... من الخوف... من الحزن ومن الأمل... نعاني من كلّ تلك الظواهر المريبة.

إن أكثر ما يزيد اضطرابي في هذه الأيام تلك الخصائص آللّا إرادية التي يتمتع بها الإنسان، تلك التي لا يستطيع التحكم أو السيطرة عليها ولا غنى للمرء عنها.

أتحدث عن الأشياء العامة المشركة بين صنف البشر، فخاصية النوم مثلاً هي حاجة لا مفر منها ولا غنى عنها.

إنها أداةُ الشحن لصنفنا، لكي نكمل يومنا دون أية مشاكل في الأجهزة التي نمتلكها في هذا الجسد العظيم.

هنا تأتي تبعات هذه الخاصية وهي ما أتحدث عنه (الأحلام)، وتتغير مهام هذه الخاصية عند الإنسان بحسب درجة اضطرابهِ... تعبهِ... قلقهِ... مرضهِ... حزنهِ وفرحهِ... أما في حالة الفقد والخذلان فتصبح هذه الخاصية هي الشفاء الوحيد للمرء. لا دواء، لا غذاء، لا كلمات من أقرباء ولا حتى عزاء ينفع.

إنها حَظُّ الوحيدين، فلكلٍّ منا مَهربه أيضاً.

ومن الشفاء تبدأ الرحلةُ، رحلةٌ إلى شتاتِ الروح، إلى تضاد المشاعر، إلى فقدان الذات.

رحلة يسودها الانكسار، رحلةٌ يقودها الجنون.

@ART OF_BOOK

حينها يفرُّ المرء إلى سريره للهرب من كل وجعٍ وفكرة، من كل ألمٍ وحسرة، من كل دمعة وغصة، أملاً بهنيهةٍ من السكينة والأمان بعيداً عن ذاك الخذلان. وما إن تأتِي مَلَكاتُ النوم حتى نبحر في سماءِ الأحلام... تلكَ الأحلام المحملة بشتى أنواع الغياب، تلك الأحلام التي لا تكادُ تفارقنا بعد كلّ الآلام التي نعاني منها قسراً.

وتأخذنا إلى مركز الوجع، إلى منبع الحكاية، تلك التي غيرت حياتنا إلى الأبد.

تلك الحكاية التي ظننا أننا إذا أغمضنا أعيننا فسننساها ولو لبرهةٍ من الزمن. فلا سبيل لنا للشفاء إلا بتجرع ذلك العلقم، المشاهدة من جديد، الغوص في كل تفصيل أغفلناه عند الصدمة، كل انكسارٍ سرنا الله به، كل حسرة بددتها دعوات أمهاتنا، كل ألمٍ راح ضحيته مستقبلنا.

فلا سبيل لنا سوى المشاهدة لعلنا نستيقظ إلى يومٍ جديد، حبٌّ جديد ومستقبلٌ جديد، ومن يعلم فلعله يكون جرحاً جديداً.

أما أشباهي الثائرون على الليل فلهم في الأحلام حكاية، حكاية منتهية الأجل نحملها معنا إلى حاضرنا الأليم.

إلى الحالمين منهم ببقعةِ النور البعيدة في نهاية هذا السرداب العميق... لا يعلمون ماذا أو من ينتظرهم.

إنها جماليةُ الأحلام وإبداع العقل في تحميل كل الشخصيات الممكن لقاؤها. فمنهم من يكون في الذاكرة وقد أخذ الحيز الأكبر منها، ومنهم من في القلب عند

@ART_OF_BOOK

صماماته، ومنهم مجهول، مجهول الشكل والصوت، ومنهم الأسوأ، جروحنا النازفة. وتطير المخيلة بين فرح وحزن، بين حب وغربة، بين وجع وفراق، بين معصية وطاعة وبين خذلان وانكسار.

لكل منّا ما يرغب به وعلى طريقته المثلى، فلا شيء يقف في طريق أحلمك وأفكارك سواك {أنت...} أنت فقط من يتحكم بمخيلتك الواسعة. هذا ما تبقى لنا اليوم قبل انقراض إنسانيتنا.

إذاً يجب أن نعيد ترتيب أفكارنا بما يليق بأحلامنا، علينا اختيار المؤقت الجميل منها. فقد كبرنا بالقدر الكافي لنعلم أن لا شيء يبقى للأبد.

فلنأخذ من ذكرياتنا مع العائلة البدايات فقط؛ لأنها الأرحم للقلب، فما من لحظات أجمل من رؤية والديك في عزِ صباهما يملآن البيت بأوامرهما جامعين حولهما كل أبنائهما بمحبةٍ وإخلاص أملاً بغدٍ أفضل لهم. ودعِ الآلام التي تسري في جسميهما من كل حدب وصوب، وانسَ أن لهما ثلاثة عشر نوع دواء مختلف، واشطب تلك الحرب القذرة القاسية التي شتت شملنا، فلا أملٌ حتى بلقاءٍ أخيرٍ.

اجمع بداية الهُيام مع المحتل وليفك الذي استولى على عرش فؤادك وغير حياتك إلى الأبد. أكلمك عن ذاك المعشوق الحقيقي الذي يصادف مرةً في الحياة ثم يأتي الباقون ليسدوا ثغرات مخلفات ذاك الوجع... ذاك التيه. مَزق كلّ أسباب الغياب ولا تحمل منها شيئاً.

ولنرفع عتبة الألم وندق أجراس الطوارئ، وننادي الأمل كله ولندفع بهم إلى

@ART OF_BOOK

تلك النقطة... إلى النور... ونصرخ بكل ما تبقى لنا من قوة: لا مكان لنا في الظلم، نحن قوم مدّنا الله بالإيمان، ومن آمن وسلّم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

***

@ART_OF_BOOK

نذير الشؤم

نذير هو اسمي، مواليد 29 شباط ولم أسمَّ مصادفة بهذا الاسم الجميل، بل كان نتيجةً لرد فعل أبي عندما علم بوفاة والدته في نفس يوم ولادتي، فكان العرف أن مولدي هو نذير شؤم للعائلة أجمعين، مع أن جدتي كانت تملك كل مؤهلات الموت من أمراض غريبة لم يسمع بها ابن سينا من قبل، ولكنه العرف والتقاليد في بلدتنا الحبيبة، ولم يكن لأمي أي موقف يسجل ضد أبي في ذلك الحين، حيث إنه كان صاحب غضب شديد ولا يكرر كلامه مرتين، وهو من يقرر والآمر الناهي في المنزل، فكان على أمي الطاعة فقط ومواساتي منذ صغري إلى يومنا هذا من نوبات غضب أبي وتذكيره لي بأني نذير الشؤم الذي أفقده والدته العزيزة.

لم أكن أعي شيئاً حتى بلغت العاشرة، حينها أصبحت أدرك حجم المعاناة، إذ أن الخبر لم يتوقف عند أبي بل أكمل مسيرته إلى أعمامي وعماتي وأبنائهم وكل أبناء حارتنا وأصدقاء أبي في العمل، وحتى أخو أبي في الرضاعة في كندا كان قد بلغه الخبر، بل وسمعت من أمي أنه رفض أن يقابلني حين جاء للدفن في ذلك اليوم (الجميل) حسب وصف أمي بيني وبينها سراً. فلك أن تتخيل أن أحداً من الجمهور الكاره لي يسمع أمي تقول إنه كان يوماً جميلاً.

كان جميع إخوتي يواسونني بأنه لحسن حظي أني ولدت بتاريخ لا يتكرر إلا كلّ أربع سنوات مرةً، أي أن الكارثة واليوم الظلامي يأتينا مرةً كل أربع سنوات فقط، وفي نفس الوقت كانت أمي مشتتة بين أن تهنئني سراً وتسمعني كلّ كلمات الحب والحنان في صباح هذا اليوم، وتحاول شحذ همتي لأواجه هذا اليوم بأقل حزن وألم ممكن، علماً أنه يوم نادر أيضاً، فما كان للعائلة إلا أن يجتمعوا في

PART_OF_BOOK

بيت عمي الكبير ليقيموا قداساً وذكرى ويلتهموا خاروفين على العشاء وبرميلاً من النبيذ المعتق على روح المرحومة الغالية، ويجتمع الجميع وأعينهم تتطاير وتقع عليَّ أنا خاطف الأرواح، وكأني وقعت وثيقة مع ملك الموت بأن نتبادل الأرواح أنا وفقيدتهم.

مع هذا كان كل شيء جميلاً بالنسبة لي، تجمع العائلة وتبادلهم أحزان بعضهم وإقامة قداس والوليمة الفاخرة، وتوزعهم بعدها ليلعبوا الورق ويسمعوا الأغاني ويضحكوا كأي تجمع عائلي طبيعي أيام العيد، إلى أن تأتي أمي ومعها العيد كله وقد صنعت قالب حلوى جميلاً جداً، كان عيدي الثاني عشر، أي بدأت أفهم ما يدور حولي، هرعت لها فرحاً؛ إنها أول مرة أرى فيها من يحتفل في عيدي، إنه أول قالب حلوى لي أنا، إنه شيء غريب وعظيم بالنسبة لي، ففي كل سنة نحتفل بريم وإبراهيم أخوي الكبيرين ونشعل الشموع ونغني ونضحك وأبي يحمل أجمل الهدايا لهما، كنت أقول لأمي متى يأتي عيدي يا أمي، وكان ردها نفسه كل سنة: لم يحن الأوان بعد يا عزيزي. لم أبال حقيقةً لأني كنت أقول في نفسي بأن الاحتفالات بأعياد الميلاد في عائلتنا تبدأ متأخرة، وفي تلك اللحظة أيقنت أنها تبدأ في الثانية عشرة من العمر.

ساد الصمت أرجاء المكان وامتلأ بنظرات متطايرة بين الجميع، الكل في حالة ذهول وصدمة وكأن أمي حملت عارها بين يديها على مرأى من الجميع متفاخرةً به، وما إن أدرك أبي حجم الموقف الذي وضعته أمي فيه حتى جن جنونه وانقلب وجهه وصرخ: كيف تجرئين على فعلتك هذه يا امرأة! إنه يوم مأساة وحزن وهمّ

ART OF BOOK
@ART OF_BOOK

لنا جميعاً وأنت تريدين الاحتفال بنذير شؤمك هذا، عار عليك. واقترب نحوي وصفعني على وجهي أمام الجميع ليوبخ أمي على فعلتها المشينة، ويبلغ الجميع أسفه عن سفه أمي وقلة وعيها واستهزائها بمشاعرهم، وأخذ القالب الجميل ورماه ليرتطم فرحي معه أرضاً.

جفت العروق في جسدي ذلك اليوم، حينها أدركت وعرفت السبب الحقيقي الكامن في عدم احتفال أهلي في عيدي، وعندها أدركت لماذا يقبل الجميع على ذكر اسمي مصحوباً بالشؤم.

لم أبك ذلك اليوم؛ لأن أمي لم تقصر في ذرف دموعها بسخاء للدفاع عن قضية ابنها فلذة كبدها، أما بالنسبة لأبي فكان ينحب على ذنبها الدنيء الذي اقترفته على مرأى ومسمع من الجميع، فأُدينت أمي بفطرتها وحبها لجزء من روحها وقصاصة من جسدها وبرعم قلبها، لكن أبي لم يكتف بهذا بل أضاف لها تهمة عدم الإخلاص لأنها لم تحب أمه يوماً حسب زعمته، بل أصر على أنه رآها متلبسة سعيدة بنذيرها يوم ولادته بدل أن تكون باكيةً لفراق أمه، ولم يكتف بذلك، فقد أحس بطعنة في رجولته أمام العائلة فصرح جهراً بأنه سيناقش موضوع الطلاق مع القس يوم الأحد في الكنيسة، وفعلها مع أن الطلاق والهجر ليس بالأمر السهل عندنا نحن السريان، بل هي نادرة الحدوث وتضاف إلى المعجزات السبع، ولكن عائلة أبي مخضرمون بقوانين الكنيسة واللعب عليها، ولو شاؤوا لسنّوا قانوناً جديداً ينص على سماح طلاق الزوجة في حال عدم إظهار حزنها على والدة زوجها المتوفاة، فهم يملكون الكنيسة ويتحكمون بها، ومن يملك القانون يفصله على

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

مقاسه، فأخذ إخوتي الكبار ليربيهم لأنهم فلذات كبده، وتركني أنا وشؤمي لأمي حسب قوله علماً أن الحضانة لأبي، فلقد تجاوزت التاسعة منذ ثلاث سنوات.

ما كان لنا أنا وأمي مكسورة الخاطر إلا أن ننتقل إلى منزل جدي في الريف الحمصي، حيث كان يسكنه مع جدتي وخالتي التي امتنعت عن الزواج وأصبحت من الأخوات في دير القرية، وكان ذلك قراراً وجاهياً غير قابل للطعن بعد أن وصل إلى مسمع جدي بأن خالتي على علاقة جادة بشاب مسلم معها في الجامعة، وما كان من جدي إلا أن يأخذها إلى الدير في ليلة لا قمر فيها ويسلمها إلى الأخوات لكي تتعبد وتتزهد وتتوب عن خطيئتها وتصبح خادمة الدير العذراء المخلصة، على أن تشوه سمعة العائلة في القرية بزواجها من ذلك الشاب المُسلم، من يعلم إن كانت خطتها أن تُسلم أيضاً، علماً أننا محاطون بالمسلمين من كل مكان حتى أن في قريتنا العوائل السريانية تكاد تعد على الأصابع، وأشارت خالتي في يوم من الأيام إلى أن من حسن حظ أمي أنها تزوجت باكراً من أحد أقرب أصدقاء جدي في حمص المدينة، وكان والد أبي أحد القائمين على أعمال الكنيسة السريانية الأرثوذكسية في حمص، بل وكان القس فيها ولكنه توفي قبل زواج أمي من أبي، ولكن شأنه بقي قائماً بين السريان آنذاك، وعليها كان الفخر كل الفخر لجدي بأن صهره هو الابن المقدس، وكلنا خاطئون آثمون.

والدليل على ذلك أنه أذاق أمي ويلات اللوم والعتب، حتى أنه قرر أن يأخذني ليعمدني مجدداً في سن الثانية عشرة؛ لأني السبب في طلاق أمي الآثمة من صهره العزيز ابن القس آحو عليَّ الشأن. وما إن وصلنا إلى الدير حتى روى قصتي

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

للقائمين على تعميدي، فما كان منهم إلا أن جمعوا الناس في قداس يوم الأحد، ووضعوا الماء المقدس في برميل كبير في منتصف الصالة مواجهاً للمذبح، وجردوني من ملبسي كآثم مرتد، ووضع رئيس الدير الأب يده على رأسي وهو يتمتم بالسريانية وطال الدعاء، وما كان مني إلا أن أقاوم الغرق وما كان للقس إلا أن يغطس رأسي بقوه أكثر لأتطهر من ذنبي العظيم، وبعد أن طالت الصلاة ما كان مني إلا أن أخضع مستسلماً للغرق في المياه المقدسة، وبدل أن أتطهر دخلت في غيبوبة لثلاثة أيام، وعندما استيقظت كنت في المستشفى وكانت أمي فوق رأسي تذرف الدموع قهراً. جاء جدي وألقى نظرة سريعة عليَّ وقال لأمي لا تقلقي إنه الآن قد ولد من جديد، وهذه علامة من الرب بأنه لا شؤم سوف يصيبنا بعد اليوم، ولعل الرب يتقبل صلواتنا بأن يعود زوجك إليك، فلدينا ثلاث سنوات قبل فسخ الزواج.

أما أنا فنتيجة الغرق ونقص الأوكسجين في الدماغ أصبت بمرض تعثر الكلام وأصبحت أتلعثم، لكن الطبيب كان قد طمأن أمي بأنها حالة عرضية وتزول مع الأيام، ويمكن لها أن ترجع في حالات معينة فقط مثل الخوف حد الهلع أو السعادة المفرطة، حينها اكتسبت لقباً جديداً يضاف إلى اسمي بين أبناء القرية وفي المدرسة نذير شؤم ومتلعثم، ومنذ ذلك اليوم أنا في جهة والكنيسة وجدي في جهة أخرى تماماً.

مضت بنا الأيام إلى أن انتهيت من الثانوية، كنت من المتفوقين بين أبناء القرية ولم يكن لدي خيار آخر، كنت أريد أن أعوض فكرة أني منبوذ وأسطورة أني ممسوس بالشؤم، وفعلاً التحقت بالجامعة في المدينة واخرت فرع الصيدلة في وقتها لأني

كنت على اطلاع كامل على جميع الأدوية والوصفات، فجدي كان الصيدلاني الوحيد في القرية وكان يصنف على أنه طبيب القرية أيضاً، فما كان لي إلا أن أتعلم المهنة من جدي؛ لأن كل وقتي كان منصبّاً في الدراسة والصيدلية، لا أصدقاء ولا أقارب ولا حتى زيارات لخالتي في الدير، تعلقت كثيراً بهذه المهنة بل كنت أشعر بسعادة غامرة عند مساعدة الناس، فغالبية سكان القرية كانوا بسيطي الحال، لا طاقة لهم على زيارة الطبيب ثم الذهاب للصيدلية لشراء الدواء.

ها أنا اليوم في الصباح في جامعتي وأصبحت في السنة الثالثة وفي المساء اليد اليمنى لجدي في الصيدلية محاولًا أن أبني اسماً طيباً بين أبناء القرية وطبعاً.. لم أنجح.

لكن ما كان يزيد سعادتي كل يوم هي أم سعيد جارتنا، كانت طاعنة في السن هي وزوجها ولا معيل لها، كل أبنائها في المدينة وكان يلزمها حقنة مقوية للأعصاب كل يومين، كنت أنتظر الموعد بفارغ الصبر كي أذهب إليها، وعندما كنت أشارف على الانتهاء كانت تبدأ بالدعاء لي بأن تكون لي زوجة جميلة حنونة تعوضني عن كل ما مررت به في حياتي، وتعطيني قطعة من الكعك الممزوج بطعم الزنجبيل والقرفة، وكنت أفرح بها فرحة طفل بريء لأنها مخبوزة بكثير من الحب والعطاء، وكانت تختم الحديث مبتسمةً: تصبح على خير يا نذير الخير.

***

ـ أمي العزيزة، الله كم أحبك! رائحة طبقي المفضل تَعُمُّ البيت، نعم إنه ورق

@ART_OF_BOOK

العنب اللذيذ، شكراً لك يا أمي، فقد كان يوماً طويلاً، فمن محاضرات الجامعة المقيتة إلى المواصلات الطويلة للوصول للقرية، ومن ثم إلى محاضرات جدي العظيمة في الصيدلية.

- بالهناء والشفاء حبيبي، كنت أريد القول بأني أشعر بتوعك الليلة في معدتي وتناولت أقراصاً مهدئة لذلك سأنام باكراً، وأنت أنهِ طبقك وعليك أن تتصرف بمسؤولية وتضع الطبق في المطبخ ولو لمرة واحدة في حياتك وتدعني أنام بسلام.

- سلامتك يا أمي، لا عليك لن أضعه في المطبخ فحسب، بل سأغسله وأعيده إلى مكانه كي تعلمي أنك استثمرت في الابن الصح. وضحكت بشقاء.

- ابتسمت أمي وقالت: اخرس كلكم أبنائي فلذة كبدي، وأحبكم حتى وإن كنت لا ألتقي إخوتك إلا في العيد، ومع ذلك فإنهم حرقة روحي وفي فراقهم شقائي. اغسل الصحن جيداً يا نذير الخير، ودعني أنام.

هذا كان آخر حديث بيني وبين أمي قبل أن توقظنا في منتصف الليل وصراخها يقطع القرية ذهاباً وعودةً، وبعدها إلى المشفى الأقرب في القرية التي بجوارنا، فالطبيب المقيم هناك أصر على إجراء عملية استئصال المرارة على الفور لأنها كانت قد انفجرت في داخلها.

بعد ثلاث ساعات متواصلة من العملية ونقل الدم، والممرضون والأطباء يتهافتون إلى غرفة العمليات بدأ الشك يراودني، واقتربت من جدي لأسأله إن كان يعلم شيئاً عما يجري ووقفت كلماتي عند جججج جججججج جججججدي، عندها أيقنت أني

ART_OF_BOOK
@ART_O'_BOOK

خائف حد الهلع، وأكملت سؤالي دموعاً في حضن جدي، ما هي إلا لحظات حتى زف الطبيب لنا خبراً أثلج قلوبنا بأنها تعدت مرحلة الخطر، وسوف تبقى في العناية المركزة إلى أن تستيقظ ليقوموا بالتحاليل اللازمة لضمان صحتها.

وأخيراً ظهرت أختي حبيبة أبيها وهي ملهوفة خائفة تقدم كل الأعذار لتأخرها، وما إن طمأنتها على الوضع حتى جال بخاطري أن أسألها عن أخينا الكبير الموقر وفعلت: أين أخوك الفاضل؟ أم أن أباك لم يأذن له بأن يأتي كي لا يلتقي بي ويحل الشؤم في حياته.

هزت رأسها وقالت إنه في رحلة عمل خارج المدينة، وقد اتصلت به وهو في طريقه إلى هنا، دعني منك ومنه أريد أن أكون بجوار أمي عندما تستيقظ.

فعلاً ما هي إلا لحظات حتى بدأت أمي بشق طرفي عينيها، لكنها كانت عاجزة عن الكلام، لسانها ثقيل من البنج غالباً.

ابتسمت طويلاً ثم هوت مجدداً وغابت عن الوعي، حضر الطاقم الطبي بالكامل، يا إلهي! توقف في القلب! صدمات كهربائية! وما إن استقرت حالتها بصعوبة حتى أجريت لها جميع تحاليل الدم اللازمة والفورية.

ها هو الطبيب مجدداً ولكنه هذه المرة بصحبة أخي، لم أعطه انتباهي كنت مشتتاً، أريد أن أطمئن على أمي ولكن أخي اختصر كل شيء بضمة قوية ودموع تكاد تغرق المستشفى بمن فيه، وقال لي إن دم أمي قد تلوث جراء انفجار المرارة وهي الآن في غيبوبة ولا سبيل لها للنجاة، ثم صرخ قائلاً إن أمي سوف تموت... إن أمي

@ART_OF_BOOK

سوف تموت؟!

عفواً! ماذا! أمي أنا! ستموت لا... لا أنت مخطئ، كنت جالساً معها البارحة وكانت قد حضرت لي طعامي المفضل، وأطلقتُ دعابةً حولكم وضحكنا ونامت وهي بخير، لا...لا لا بد أن هناك لبساً ما، هناك خطأ!

صرخت بأعلى صوتي: يا الله... يا يسوع، ارحمنا، لا حياة لي من دون أمي، لا مكان لي سوى حضن أمي، يا يسوع، أجرنا. وغلبني التعب من كثرة البكاء والصراخ إلى أن أغمي عليَّ.

استيقظت على صوت أختي: هيا قم يا نذير، إن أمك تنادي باسمك إنها تناديك فهيا قم إليها. لم أستوعب كل ما يجول من حولي. رأسي يؤلمني. لكني نهضت مسرعاً لأسمع أمي... لأرى أمي... لألبي نداءها، وها أنا قد وصلت إليها وأنفاسي متقطعة، لا أرى سوى ابتسامتها وحولها ضباب. لغتي لا تسعفني... لا أستطيع النطق، آآآآآآآآممممم آآآآآآآممممم. بكيت كثيراً وضممت أمي. إنها لغة التواصل الوحيدة التي بقيت لدي لعلِّي أنقل إليها خوفي عليها، لعلَّها تعرف أني أحبها وهي حب حياتي الأول، لعلِّي أستطيع أن أشعرها بالأمان كما فعلت معي طوال حياتي، لعلِّي أدفئ قلبها وأنقل إيماني لها بأنها كل شيء خير وجميل وعظيم في حياتي. ربتت أمي على رأسي وقالت بصوت خافت وتعلو وجهها تلك الابتسامة المشرقة: كنت كل الخير لي في حياتي يا نذير الخير، اتبع قلبك يا حبيبي، اتبع قلبك سيهديك وتكون من الصالحين. حشرج صوتها وأخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة وقالت: ***إن العُزَير هو مخلصك ومنطقك بالحق، فسم ابنك باسمه تكريماً له يا نذير الخير العُزير يا نذير الخير، العُزَير.*** ثم نامت

@ART_OF_BOOK

واستقرت وسلمت روحها إلى بارئها.

لم يقصم ظهري موتها فقط بل قصم روحي إلى قسمين، قسم دفنته معها والآخر بقي معي نازفاً وحيداً وغريباً، كنت قد صرت يتيماً مرتين، مرةً حين نفاني أبي ولم يعد موجوداً بالنسبة لي، والآن موت أمي.

كانت المرة الأولى التي أدخل فيها الكنيسة بعد حادثة التعميد تلك، كنت خائفاً كثيراً ومشوشاً أكثر، صلينا على روح أمي لترقد بسلام، وأشعل الجميع شمعةً لها إلا أنا كنت قد جئت بشمعة متوهجة نارها عالية، ووقفت في منتصف الصالة مقابل المذبح في نفس المكان الذي أُهنتُ فيه واتُهمتُ بأني آثم، وأطفأت نار الشمعة وبدا على الجميع آثار الدهشة وقلت لهم: هكذا هي الحياة لي من دون أمي، مظلمةٌ لا خير فيها.

أثارت تلك الحادثة استغراب الجميع، بل إن جدي وكزني عندما وقفت بجانبه والتابوت ينزل في الحفرة وقال لي: ما بك يا فتى، ألا يكفيك أنها المرة الأولى التي تزور فيها هذا البيت المقدس بعد تعميدك وتأتي بحركات صبيانية لتدنس هذا المكان؟! لم أبالِ صراحةً لأن مشهد التابوت والقبر كان مهيباً آنذاك.

مرّ أسبوع على وفاة أمي وها هو جدي في الصباح محاولًا شحذ همتي: هيا بنا يا فتى، فلننسَ الألم ونذهب إلى الصيدلية. وفعلاً قلت في نفسي إن من شأن العمل وانشغالي بمداواة الناس أن يخفف وطأة التفكير في ألم الفراق ولو للحظة من الزمن. لكن كان لجدي مآرب أخرى، فهو يريد أن يضع النقاط على الحروف

منذ البداية في هذا الفصل الجديد من الحياة، وها هو يعود ليذكرني ونحن في طريقنا بحديث أمي الأخير وينوه في النهاية بأنه قص الحكاية على رئيس الدير عندما كنا في الكنيسة، وقال بأنه يجب عليَّ أن أزور الكنيسة لأشعل شمعةً لأمي بدل تلك التي أطفأتها، وأن القس يريد التحدث معي بشأن وصية أمي، فهي بالغة الأهمية وتحمل رسالة مهمة لنا جميعاً نحن السريان. لم أرد أن أدخل في جدال منذ البداية مع جدي، لذا لم أبدِ أي اهتمام وقلت له إن شاء الله.

ماذا يريد الأب مني! إني متأكد بأنه لا يبالي إن أشعلت أو أطفأت شموع القرية كلها، ولكنه يريد التطرق إلى وصية أمي، لقد أثار فضولي. لم أستطع الانتظار إلى يوم الأحد، فقد بقيت قلقاً كل الليل: ما هو الشيء البالغ الأهمية في وصية أمي ولنا كلنا نحن السريان!

شربت قهوتي في الصباح على عجالة وانطلقت إلى الكنيسة مباشرة قبل الجامعة ودخلت من باب الكنيسة، وفعلاً رئيس الدير كان هناك ويبدو أنه ينتظرني، فقد عرف نقطة ضعفي واستطاع أن يجذبني إلى هذا المكان بعد أن ذقت فيه ما ذقت. نعم أيّها الأب.

إني أسمعك، قلت لجدي إن وصية أمي تحمل رسالةً بالغة الأهمية وإنها لكل أبناء طائفتنا، وها أنا ذا كلي آذان صاغية.

قال لي: إن أمك ـ لروحها السلام ـ توصيك بأن تحمل الرسالة المسيحية كما حملها عزرا لقومه، وأعاد إحياء الكتاب المقدس وعلّمه للعالم، وأمر بالعمل بما ينص

@ART_OF_BOOK

عليه، حتى وإن عزرا كان من عُليَةَ القوم وهو الذي حرر اليهود بعد السبي الذي حصل لهم في أورشليم (بيت المقدس)، وهو الذي أعاد إحياء التوراة وكتب أسفار الإنجيل، وإننا نقدسه جداً حتى أننا نضعه في خانة عظيمة جداً، وهناك الكثير من الأشياء لا أستطيع البوح لك بها حتى تختار طريق الهداية والتبشير، إن اختيار أمك لهذا الاسم ما هو إلا رسالة واضحة بأن تسير على هذا الطريق.

مهلاً مهلاً يا أبتِ، فأنا لم أفهم شيئاً، فوصية أمي كانت واضحة بأن العُزَير سيكون مُخلِّصي ومُنطقي، ثم نصحتني إن رزقت بطفل أن اسميه العُزَير تيمناً وإكراماً له، ثم إنه ليس عزرا كما تفضلت.

نعم إن ترجمة اسم عزرا من اللغة السريانية إلى اللغة العربية هي عُزَير كما قالت والدتك، ولكننا سريان وهذه لغتنا الأم، ومن المؤكد أن والدتك خانها التعبير، فهي كانت على فراش الموت ونطقت الاسم بترجمته العربية لأنها تعلم أنك جاهل بالسريانية.... والآن ماذا تقول؟ هل تريد أن تتبع طريق الهداية وتصبح من المبشرين؟

قلت: إن أمي كانت واضحة ونطقتها مرتين «عُزَير عُزَير يا نذير الخير»، هكذا قالت وإن يكن فأنا لست مهتماً بعرضك هذا، ولكن إن شاءت الأقدار وكان لي ابن في المستقبل فسيكون اسمه عُزَير، وهو حر آنذاك إن كان يريد أن يسلك طريق الهداية والتبشير. أما أنا اعذرني، فأمي هي التي ربتني وتعرف ما بداخلي وهي على دراية بأنه لا ناقة لي في الدين، فقد ذقت الكفاية من رجال الدين وأولهم أبي ابن الأب العظيم آحو الضليع في الدين، ومنك أنت بعد أن أغرقتني وبقيت معطوباً كل حياتي، وكل أهل القرية والأطفال في المدرسة يلقبونني بالمتلعثم فأنا

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

عند أبي نذير الشؤم وعندكم في القرية الآثم الذي حولته المياه المقدسة إلى متلعثم.

غضب جداً رئيس الدير وقتها وصرخ في وجهي وقال إني آثم عظيم وصدق من قال إني نذير للشؤم، فما جلبت إلا الشؤم لعائلتي، وكان يريد أن يستفزني فقال حتى أني كنت شؤماً على أمي، فبدل أن أشعل شمعة تنير روحها بسلام أطفأتها لكي يظلم طريق روحها.

لم أشأ أن أصعّد الحديث في الكنيسة، إنه مكان مقدس يجب عليّ احترامه والأب أيضاً مع أنه كان لئيماً باستفزازه هذا، ومع ذلك اعتذرت منه بكل لطف وقلت له إنه كان سوء حكمة مني وإني حزين على أمي، وإني سوف أفكر في عرضه السخي هذا وأعود إليه بخبر عن قريب.

أضاف قبل ذهابي بأنه إن كنت سأختار هذا الطريق فيجب عليَّ أن أعلم بأنه سوف يستمع إلى اعترافاتي وذنوبي ويسامحني عليها، وبعدها يقوم بتعميدي مجدداً لأبدأ كشخص طاهر من الآثام والذنوب. تلعثمت وتلعثمت وتلعثمت وأطرقت رأسي إلى الأرض مسرعاً إلى إيمان.

نعم إيمان تلك الشقية القوية صديقة الروح والهوى. بدأت قصتي معها بعد أن تناوب عليَّ أطفال المدرسة بأقسى كلمات التنمر بأني نذير الشؤم ومتلعثم؛ ويوماً بعد يوم أخذت كلماتهم تصبح أكثر قساوةً وخشونة، خاصةً عندما تأكدوا أنه لا أب لي يحميني منهم ولا إخوة كبار يقفون إلى جانبي، وبذلك أصبحتُ لقمةً سائغةً لأولئك الأطفال الذين يعيشون في عنف أسري، ولا سبيل لهم إلا أن يؤثر ذلك

على تصرفاتهم وسلوكهم، وبالطبع سوف يمثلونه بحذافيره عند أقرب فرصة تتاح لهم وأنا كنت الفرصة المناسبة لهم لكي يمارسوا ما رأوه وما سمعوه وما عايشوه في منازلهم.

انهال اثنان منهم عليّ بالضرب المبرح، وكنت أبكي بحرقة وأصرخ ولم ينجدني تلعثمي اللعين إلى أن جاءت منقذتي إيمان، كانت من طلاب الصف الأكبر من صفنا بعام واحد ولها حضور قوي وكاريزما خاصة، وخلصتني من بين أيديهم وخبأتني خلفها وقالت لهم إنه من الآن فصاعداً نذير هو أخي الصغير ومن يقربه يقربني.

وقفت مبهوراً كلياً من تصرفها هذا فأنا لا أعرفها. اقتربت مني ومسحت دموعي وقالت لا تخف سأكون دوماً إلى جانبك. ومن شدة فرحي تطلب الأمر بضع دقائق لأنطق كلمة «شكراً» كاملةً بلا تقطيع، ومنذ ذلك اليوم شُغف قلبي حباً بها وبقيت علاقتي بإيمان غريبةً بعض الشيء، فهي بيت أسراري وأماني عند ضعفي، كنت لها كل شيء أيضاً مع أنه كان هناك الكثير من العقبات في صداقتنا هذه، من بينها أنها أكبر مني بعام وأنها مسلمة من عائلة محافظة ولها سمعتها في القرية، وأنا سرياني من القلائل في المنطقة وأبي هجرنا قبل وفاة أمي ولنا تجربة سابقة معاكسة مع خالتي أيضاً. قصتي مع إيمان.

كانت كإضرام النار في القرية كلها. والإجهار بها بالنسبة للعائلتين كانت كأننا اتصلنا بالطوارئ وجاءت سيارات الإطفاء لإخماد القرية وأنا وإيمان بدلنا المياه التي في السيارات بالديزل الصافي. ومع ذلك بقيتُ وإيمان نلتقي في السر خارج

@ART_OF_BOOK

أوقات المدرسة وبقينا أعز الأصدقاء علماً أني أحبها، فهي كانت النور في هذا الظلام... كانت السلام في كلّ هذا الخراب، مع أنها كانت تقول دوماً وتذكرني بأني أخوها الصغير، كم كنت أكره ذلك، ولكنها كانت تصرّ على أن علاقتنا لا تصلح لتكون أكثر من صداقة، فلكلّ منا معتقده، ومع ذلك عندما كنت أنتهي من محاضراتي في الجامعة أتحجج بأي شيء لكي أشرب معها القهوة في كلية الطب، وبعدها نعود معاً إلى القرية في نفس الباص لكي أجلس بجانبها كلّ الطريق ويطمئن قلبي بوصولها إلى بيتها سالمةً، وفي نفس الوقت لا نثير الشبهة أمام أهل القرية، ففي النهاية نحن أبناء قرية واحدة وهي مشروع طبيبة وأنا صيدلي القرية وأصغرها بعام، فلم نثر الريبة آنذاك.

كانت إيمان مهربي الوحيد وملجئي حين وفاة أمي، وفعلاً رحلت أمي وبقيت إيمان فقط، كانت هي كل اهتماماتي، لم يبق لي سواها في هذه الحياة. وعند بدء الحرب ازداد خوفي عليها وصرحت لها أني أحبها وأنها عشق حياتي، وبكت كثيراً ذلك اليوم حين قالت إننا نحكم على أنفسنا بالموت إذا تحدثنا بصوت مرتفع، ووصل صدى صوتنا إلى أهلنا في القرية.

طرحتُ عليها فكرة الهروب معاً إلى دولة أوروبية ونتزوج هناك زواجاً مدنياً، وإن أرادت فسأعتنق الإسلام فأنا في الأساس لست ملتزماً دينياً ولي موقف من رجال الدين والكنيسة ونستطيع أن نكمل دراستنا هناك. ما كان منها إلا أن بكت أكثر وقالت إنه مستحيل، لا أمل لنا ولا قدر يجمعنا. بكيت كثيراً ورجوتها أن تفكر في الأمر، وهي أصرت أن أصمت وأنه علينا عدم التحدث بالأمر مجدداً لكي نبقى

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

أصدقاء.

***

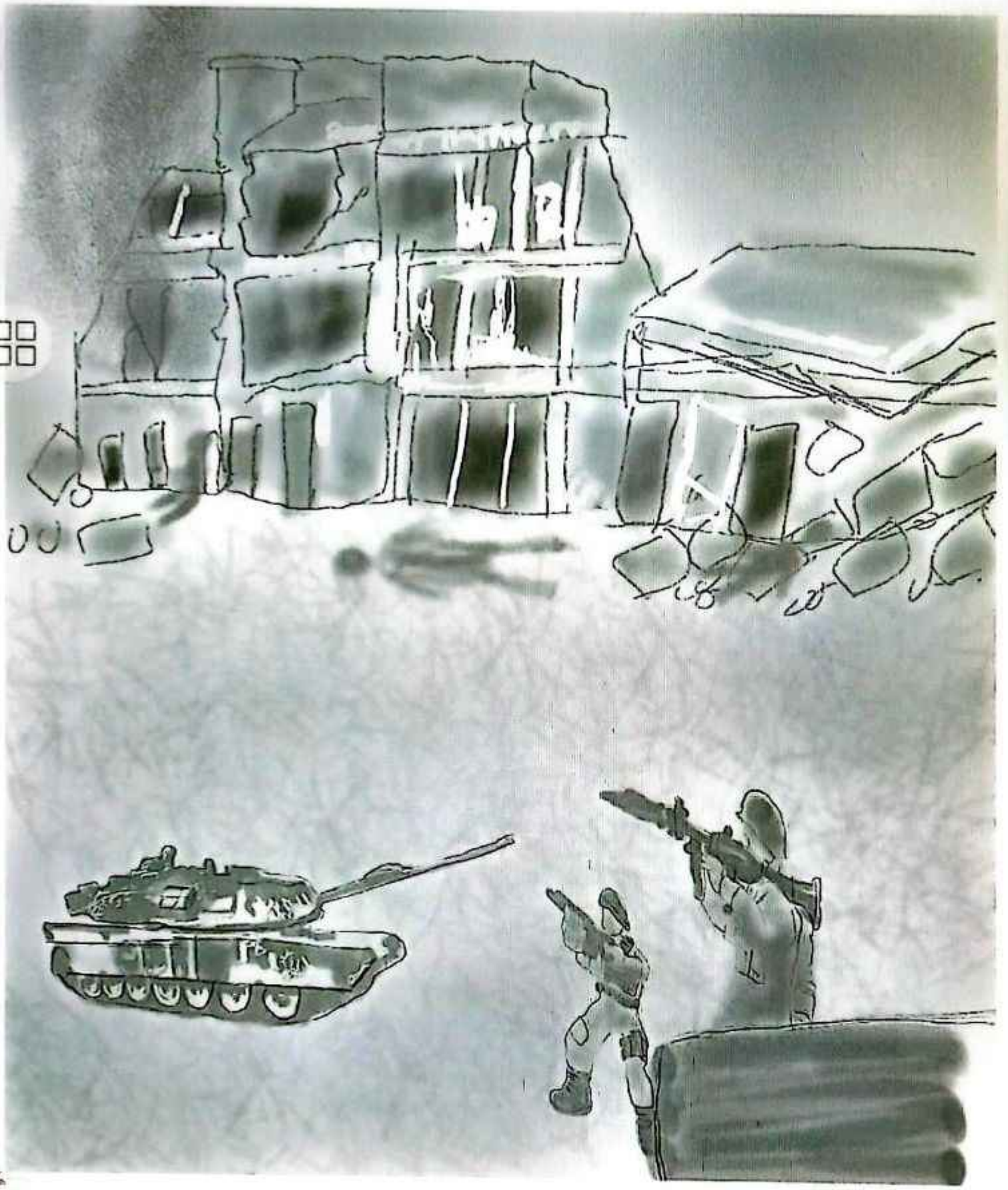

طبول الحرب

يا الله! ما هذا الخراب والدمار كله! ما الذي يحصل! قُرعت طبول الحرب في قريتنا والناس في الشوارع كانت تحمل كلّ ما أوتي لها من قوة، فهناك من كان يحمل سيفاً قديماً صدئاً قاوم به أجداده الاحتلال الفرنسي، وكان قد علقه في قاعة الجلوس في بيته للزينة والتفاخر، وهناك من كان يحمل حجارة والآخر مولوتوف يدوية الصنع من مواد أولية مكررة بالكاد تشتعل، كلهم ذاهبون للالتقاء بحشد من الجيش المجهز والمدعم بكل الآليات الثقيلة والخفيفة وبوحدات تدخل سريعة وسرية، ويبدو أنه سقطت اثنتا عشرة قذيفة في الساعات الثلاث الأخيرة ودمرت نصف المنطقة وسيارات الإسعاف، والناس تصرخ في كلّ مكان، وألسنة اللهب تلتهم الصيدلية، وأصوات المدفعية تعلو والرصاص الحي يأتي من كل حدب وصوب، والهتافات المناهضة والموالية للنظام الحاكم وتكبيرات الجوامع وجرس الكنيسة، وصراخ الأطفال وبكاء الأمهات والأشلاء المتبعثرة في كل مكان.

امتزجت رائحة الدماء بالبارود وكأنه يوم القيامة. ما كان مني إلا أن أبكي بحرقة وأنا أبحث عن إيمان بين الركام وبين الأشلاء المبعثرة لعلي أعثر على أثر لها بعد أن سمعت ورأيت أحد الصواريخ الثقيلة وقد سقط على منزلهم، ولم يبق منه سوى الأحجار المتراكمة. سمعت صرخات من بعيد تنادي اختبئوا، هنالك صاروخ جوي قادم من السماء. ولم أكد أنظر إلى السماء حتى حلّ ظلام دامس، استيقظت وإذا بجدي وأحد أبناء القرية يقومان بسحبي من أقدامي لمكان آمن والطنين في أذني يكاد يقتلني، ورأسي موجه إلى السماء لأراها تبرق وترعد من القذائف المتساقطة وأدخنة النار المشتعلة تغزو السماء، وأنا عاجز عن الحركة

@ART_OF_HOOK

وظهري ورأسي يرتطمان بكل ركام القرية وأنا أصرخ: «إيمان.» أريد أن أطمئن على إيمان، سمعت همساً مع الطنين، إنه صوت جدي يقول لي: «سوف تكون بخير.» وأغمي عليَّ مجدداً واستيقظت لأجد نفسي في سيارة جدي، كانت جدتي فوق رأسي تبكي وتقبلني وتقول لي إني بخير وسوف نصل إلى المستشفى قريباً، قلت لها: ناجيتك بالعذراء يا جدتي، هل من خبر عن إيمان؟ قالت: نعم، سمعت أنهم غادروا منزلهم الليلة البارحة قاصدين أقرباءهم في المدينة. تنهدت بقوة وبكيت وحمدت الله كثيراً وجدي يرمقني بنظرات الغضب، فهو في الغالب ينتظرني حتى أصحو لكي يصب جام غضبه علي لفعلتي الغبية، ولأن حبي العذري لإيمان قد انكشف، بعد عدة أيام كنت قد قضيتها في المستشفى للتعافي من الجروح نتيجة الشظايا والكسر في الحوض جاءت جدتي في الصباح الباكر وقالت: أحمل لك خبرين سارين، الأول: هو أنك سوف تخرج اليوم من المستشفى، والثاني: عليك النظر إلى الباب لتعرفه.

إيمان حبيبة قلبي تدخل من باب الغرفة وكأنها أدخلت جرعة من عبق الياسمين في قلبي، واقتربت نحوي وأمسكت يدي وهمست في أذني بكلمات أغنيتها المفضلة لناظم الغزالي التي طالما كانت تسمعني إياها في كل المناسبات، (قل لي يا حلو منين الله جابك خزّن جرح قلبي من عذابك.) ابتسمت وقلت لها: الحمد لله أنك بخير. وجدتي تتنحنح مقاطعةً لحظتنا المنشودة وتقول: لا أريد مقاطعتكما ولكن جدك سيأتي ولا أريده أن يلتقي بإيمان ويلقي اللوم عليها، أنت تعرف جدك يا نذير.

@ART_OF_BOOK

ودعتني إيمان وقالت: لا تقلق، نلتقي في وقت لاحق ما دمنا على قيد الحياة.

بعد عدة أيام من الصراع بين الشعب والجيش، بين الجار وجاره، بين الأخ وأخيه ظهرت لنا القليل من الصور تبين حجم الدمار الذي حل بقريتنا، وبعد أن هدأت الأمور قليلاً قررت وجدي أن نعرج إلى المنطقة ولكن لم نستطع الدخول، كانت القرية خاوية على عروشها، لا شيء فيها يدل على معالم الحياة، أحجار مراكمة فوق بعضها، ولا يوجد فيها أثر لمخلوق قط وكأنها لم تكن من قبل، وساد في البلد حرب طويلة طاحنة وصراعات مخيفة على جميع الأصعدة، سياسية كانت أم إنسانية.

ما كان مني إلا أن أنهيت السنة الأخيرة في الجامعة أو بقايا الجامعة إن صح التعبير تحت قصف وضرب واعتقالات وترويع ومعايشة أهوال الحرب المخيفة من غلاء أسعار واحتكار سلع وقتل وسلب وانتقامات شخصية فردية وجماعية، إلى أن عزمت على مغادرة تلك البلدة لما فيها من أوجاع وآلام، لا شيء فيها يذكرني بالخير أو السعادة، لم أرَ فيها شيئاً جميلاً سوى ابتسامة أمي.

والآن بقي عليَّ أن أقنع إيمان بالهروب معي إلى مكان آمن وهادئ يحتضن أحلامنا، طرحت الفكرة على إيمان في آخر لقاء لنا، فرحبت كثيراً إذ قالت إنها وعائلتها يفكرون بالهجرة إلى أوروبا أيضاً، وأضافت إنه من الأفضل أن أهاجر أولًا وأبدأ بتعديل شهادتي ونبقى على تواصل، وهي بدورها سوف تهاجر مع أهلها ونلتقي في السويد ونبدأ حياتنا من جديد. أخذت منها عهداً أننا سنحقق أحلامنا معاً، وسيكون لنا بيت دافئ والكثير من الأطفال. وتودعنا بعناق يكاد يكسر الضلوع

@ART_OF_BOOK

حباً.

عرضت الفكرة على جدي بأن يأتي معي هو وجدتي ولكنه كحال الكثيرين الذين أمضوا كل حياتهم في هذا البلد وأكلوا وشربوا من خيراتها لا يوجد في مفهومهم فكرة الهجرة، قال لي جملة مختصرة توضح كل شيء: (ولدت هنا وسأموت هنا، وما بقي من العمر إلا القليل.)

تمنيت أن أفهم حبه وتعلقه ببلد ساد فيه الخراب والدمار والدماء والفساد وتجرد من كل مؤهلات العيش الإنساني، ولكني احترمت قراره وحزمت حقيبتي. وفي اليوم التالي ركبت الباص قاصداً تركيا ومنها إلى أوروبا بعد أن مررت بتسع دول تقريباً، برفقة نصف الشعب السوري الذين بدورهم لم يقصروا في تقديم الضحايا غرقاً في بحر اليونان، ومنهم من فارق الحياة في الغابات، ومنهم من تعرض لهم تجار الأعضاء، ومنهم الكثير ممن عانى من أهوال اللجوء المرعبة، إلى أن وصلت إلى السويد متعباً منهكاً حالماً بغد أفضل.

أرسلت رسالة نصية إلى إيمان مفادها أني وصلت بخير وأني في انتظارها في السويد، وأرفقت لها عنواني ورقمي الجديد وانتظرت يومين ولم أحصل على رد منها، حاولت جاهداً التواصل معها على مواقع التواصل الاجتماعي ولكن يبدو أنها غيرت حسابها أو أضافتني إلى قائمة الحظر، منذ ذلك اليوم وأنا أرسل لها رسائل نصية أشرح فيها بإسهاب عن كلّ شيء في مراحل حياتي الجديدة ومدى شوقي إليها، ولكن بل جدوى، لم تجب حتى بنقطة!

***

@ART_OF_BOOK

سلاف

سلاف ... ابنتي، استيقظي إنها الساعة السابعة إلا ربع، لقد حضرت لك طعام الفطور، هيا يا ابنتي، أريد أن أتحدث إليك في شيء هام قد طرأ.

نعم يا أبي، قادمة...

أبي العزيز منذ وفاة والدتي وهو لا ينفك عن تقديم دور الأم والأب معاً، ولكن ما الذي يجول في خاطره اليوم! هناك شيء هام قد طرأ،

لا بد أنه قد وصله ما قد آلت إليه الأمور البارحة بعد المناظرة المفتوحة لي مع مدير المدرسة التي أعمل بها، ولكن هو من استفز الحاضرين في مجلس أولياء الأمور بالقول بأن المسلمات وخص بالقول المحجبات وأنا واحدة منهن، يمارسن الضغط على بناتهن كي يبدأن بوضع الحجاب بوقت مبكر من العمر، وهذا شيء مرفوض في المجتمع السويدي ويعتبر جريمة إكراه معنوي، وعدا عن أن الحجاب يحجب دخول المعلومات بشكل مباشر إلى رأس الطالبات، فهو رمز ديني يعبر عن اعتناق صاحبته لدين معين وإيديولوجيا موجهة من الأهل، وهذا شيء مرفوض أيضاً، ففي السويد كلنا سواسية ولا يجب فرض رأي معين أو إيديولوجيا معينة، ولا حتى ارتداء أي رمز يشير إلى دين أو طائفة معينة، هذا تصرف مرفوض في المدارس العامة.

في الحقيقة إنه الخطاب نفسه الذي ترعرعت عليه في السويد من الأشخاص العنصريين والمتحيزين وكل من هو مصاب بالإسلاموفوبيا، فبحديثه هذا لم يأت بجديد بالنسبة لي أنا كأنثى تنحدر من عائلة مسلمة محافظة من الشرق الأوسط،

@ART OF BOOK

فقد ولدت في السويد وذقت كل أنواع العنصرية وسمعت وتعايشت مع كل أنواع التمييز في المجتمع الأوروبي، وزاد الطين بلة وفاة والدتي وأنا طفلة صغيرة، فكان أبي هو الشخص الوحيد الذي يرعاني ويأخذني من وإلى المدرسة كل يوم، ويقوم بالاهتمام بي في كل جوانب الحياة، حتى أنه على حسب تعبير إحدى معلماتي يجب أن يكون هناك أنثى ترعاني كي لا تطغى الصبغة الذكورية على حياتي، خاصةً بعدما التقت والدي في عدة مناسبات وانتبهت إلى أنه له لحية طويلة وهو شيخ الجامع الذي في حيّنا، وبهذا بدأت بكتابة التقارير إلى جمعيات السوسيال والمسؤولين عن حماية الأطفال، وحتى أنها لم تتردد بإرسال البوليس في عدة مناسبات كي تطمئن أن الصبغة الإسلامية الذكورية لم تطغَ عليّ، وبأن أبي الشيخ الملتحي لم يحولني إلى أَمَةَ ولم يغسل دماغي بارتدائي الحجاب في الخامسة عشرة من عمري ولم يرغمني على ذلك، حتى أنها هي نفسها كانت تمارس عليَّ الكثير من الضغوط النفسية بطرحها نفس الأسئلة في كل يوم، هل يطعمك أبوك جيداً يا سلاف؟ هل يرغمك أبوك على الحجاب؟ هل يرغمك على الزواج من أحد؟ هل يعنفك والدك سواءً بالصراخ أو بالضرب؟ والكثير الكثير من الأسئلة الكافية لي كطفلة صغيرة لأشعر بأوجاع وآلام نفسية مختلفة في جميع مراحل العمر، لكن مع ذلك كانت أجوبتي حقيقية وثابتة، ولم تستطع يوماً أن تضع نقطة في ملفي وهذا أكثر ما أثار غيظها، ففعلاً كان أبي مثالًا يحتذى به في كل شيء، فهو إنسان خلوق متدين وهادئ الطباع وحكيم، فهو كثير القراءة والاطلاع وبنفس الوقت كان قد أصبح صوفيَّ الهوى بعد وفاة والدتي، وكل هذا كان قد أثمر بالإيجاب في شخصيتي، فعندما بلغت مرحلة الثانوية قررت أن أدرس علم الاجتماع

ART OF BOOK

ومقارنة الأديان، لكي أنقل الحقيقة بالطريقة المثلى إلى هذه العقول المغلقة الرافضة لأي شيء من قبل المسلمين والمحجبات منهم تحديداً، ولكي أصبح أقوى في مجابهة إلحادهم وعاداتهم التي اقتبسوها من الشيطان نفسه.

وها أنا الآن مشرفة علم اجتماع في المدرسة ومدرسة أديان ومحاورة شرسة في نظر أبي وكل مناظري.

أما الآن فأعود إلى السيد مدير المدرسة الذي وقع في فخ الانحياز والإسلاموفوبيا وعدم تقبل البشر كمجتمعات مختلفة وعادات وتقاليد وحضارات وأديان مختلفة، ما كان لي إلا أن أقاطعه بطريقة عصرية تناسب مكان وزمان اعتراضاته السطحية.

عذراً ماركوس، بخصوص اتهامك بأن موضوع الحجاب يندرج ضمن جريمة الإكراه المعنوي فهذا شيء مبالغ فيه ولا صحة له، لعدم توفر شروطه، فالإكراه المعنوي بالضرورة يتمثل في ضغط يمارسه شخص ما على نفسية وشعور شخص آخر بحيث يفسد حريته في الاختيار، فلا يمارسها بالشكل الطبيعي ولكن لا يلغيها كلها، فبالتالي ولتحقيق هذه الشروط يتوجب علينا ممارستها على من لديهم الحرية المطلقة في الاختيار، أو كما ندعوهم البالغين الناضجين أي فوق الثامنة عشرة؛ لأن ما دون الثامنة عشرة حريتهم مقيدة؛ فآبائهم السلطة عليهم وسلطة الآباء تشمل كل القرارات المتعلقة بمصير أبنائهم ومستقبلهم؛ فهم من يحق لهم اختيار ما يرونه مناسباً لأبنائهم، وهذا شيء متفق عليه قانونياً وبالتالي يسقط اتهامك هنا يرد عليك لأنك في موضع سلطة الآن؛ أنت مدير هذه المدرسة

ART OF BOOK
©ART OF BOOK

الآن وتمارس الضغط على أولياء الأمور البالغين الراشدين لتقييد حريتهم باختيار ما يناسب معتقداتهم، واسمح لي بأن أضيء الجانب المظلم في عقلك لأن العوائل المسلمة لا تجبر بناتها على الحجاب، بل إن ذلك يندرج ضمن أسلوب حياة المرأة المسلمة، فهي حين تبلغ يتوجب عليها ارتداء حجابها وطبعاً بدعم وتوجيه من الآباء الذين لديهم كل الحق بتوجيه أبنائهم للمعتقد الذي يتبعونه، وهذا واجب ومسؤولية تقع على عاتق الأهالي كما أنت تفعل عندما تبعد أبناءك عن المخدرات والشوارع، وترغمهم بالعودة إلى البيت في وقت مبكر وتوجههم وتمنعهم عن كذا وكذا، وفي النهاية عندما يبلغ الطفل الثامنة عشرة له مطلق الحرية في اتباع ما يشاء ومن يشاء، وهذا هو مبدأ الوصاية في السويد، أما تعليقك بأن الحجاب يحجب دخول المعلومات بشكل مباشر لرأس الطالبات فلا أعلم كيف أصنفه، سوف أعتبره مزحة ثقيلة سقطت سهواً من فمك، فشخص بمثل ثقافتك ومكانتك وفي القرن الحادي والعشرين يعتبر بأن قطعة قماش تغطي الرأس قد تحجب دخول المعلومات، وهذا شيء لا يصدق، بإمكاننا القول من نفس المنطق الذي تتحدث أنت به بأن تغطية الجوال والإنترنت سوف تنعدم في حال إغلاقنا لباب الصف، وأنت تعلم أننا في السويد خاصة ملزمون بوضع القبعات الصوفية رجالًا ونساء في كل مكان ولمدة ستة أشهر نتيجة الطقس البارد، فذاك ممنوع وهذا مسموح!!!، اعذرني فإن مزحتك ليست مضحكة بل مزدوجة المعايير ولا منطق فيها، وفي حال اعتبارك لغطاء الرأس رمزاً دينياً فبالإمكان تعميم القول على جميع الأشياء التي تلبس ويتزين بها الأشخاص بأنها رموز دينية من صلبان ورسومات وألوان الشعر المختلفة التي ترمز لفئات مختلفة في المجتمع، نصيحتي لك ـ سيد ماركوس ـ أن

تكون متفتح العقل، فلديك أكثر من 800 طالب في هذه المدرسة ينتمون على الأقل إلى 30 فئة مختلفة ثقافياً وعرقياً ودينياً.

- المعذرة يا أبي... تأخرت في التحضير ليلاً من أجل الامتحان النهائي للطلب في المدرسة وغفوت متأخرة، ولكن الحمد لله إن الفجر هنا يبدأ في السابعة، فلم أفوت صلاة الفجر، تفضل يا أبي، قل لي عن الشيء الهام الذي طرأ، أصابني الفضول والقلق.

- تناولي فطورك يا ابنتي، أنت تحتاجين إلى الغذاء اليوم خاصةً، فلا أعتقد أن ماركوس سوف يمضي بسلام معك بعد أن وقفت في وجهه البارحة، فلقد تردد صدى مناظرتكما في القرية وأصبح الحديث الجديد المتداول بين الناس، ويبدو أنه خلّف ردود أفعال مختلفة، فمنهم من قال لي في المسجد إنك كنت حادة وجازمة، ومنهم من طبطب لي على كتفي وقال: ونعم ما ربيت. ولكن سمعت أيضاً أن أكثر من تقرير وصل إلى إدارة المدرسة من أهالي الطلاب الأجانب يعبرون عن مخاوفهم منك أيضاً، وأقول لك ذلك لكي تكوني مستعدة يا ابنتي.

- لا تقلق يا أبي، إنها ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة، والآن أرجوك يا أبي، قل لي ما الأمر الهام الذي طرأ؟

- إنه كما تعلمين - يا ابنتي - أنني أقوم بالتحاليل السنوية الدورية، وفي آخر تحليل ظهر لنا تغيير طفيف في معدل الهرمونات، فاضطررت إلى أن أقوم بتحاليل إضافية والبارحة عرفت النتيجة، ويبدو أن هناك كتلة غريبة قريبة من الرئتين ويجب

ART_OF_BOOK
ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

أن أقوم بتحاليل أوسع لمعرفة ما إن كانت حميدة أم خبيثة.

ـ لطفك يا رب، ماذا أسمع! هل يعقل ذلك، تخدرت كل أطرافي، أشعر أني خفيفة جداً لا وزن لي كنيوترينوس صغير جداً أسير بسرعة الضوء وأطرق قطبي الأرض ذهاباً وإياباً. بكيت كثيراً واحتضنت أبي بقوة وما كان منه إلا أن قال: إنه اختبار من الله يا ابنتي، فلنا أن نصبر ونحمد الله والله عليه الأجر والثواب وذكرني بقول الله تعالى «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم.» صدق ربي الكريم.

***

POLICE

الدعوة_ السوسيال السويدي

لم أكن أعلم أن ما أثرته في المدرسة سوف يجذب انتباه أولئك الباحثين عن مغزى للحياة، فتواصلت معي هيئة لجمعية معروفة في السويد تضم جميع الباحثين عن إجابات جوهرية ومنطقية للأسئلة المفصلية الجدلية في تاريخ البشرية، وأُرفق مع البريد بطاقة دعوة لاجتماع بعد أسبوع من اليوم لبحث هذه الأسئلة أمام الملأ، إن أكثر ما أثار فضولي في بطاقة الدعوة تلك هي عنوانها:

«ما هو مغزى الحياة؟

هل فعلاً يوجد رب؟

الأديان أم العلم هو الحل الأمثل لفهم العالم وتاريخ البشرية؟».

إنها عناوين كبيرة كانت قد كلفت العديد من العلماء والباحثين سواء في علم اللاهوت أو الأديان أو اللا دينيين حياتهم كاملة، ولم يستطيعوا حتى الاقتراب من الإجابة، فعند جميع العلماء ـ ماديين أم روحانيين ـ هناك حلقة مفقودة، هناك شيء خفي بل قوة غير مدركة بالحس البشري ولا حتى بالآلات التي تم اختراعها لقياس الشدات وما إلى ذلك.

دخلت إلى موقعهم الإلكتروني وبدأت بتفقد الأعضاء وتاريخ التأسيس، وبدا لي أن الجمعية تأسست عن طريق مجموعة أعضاء يؤمنون بالطبيعة الأم، وأنها هي التي سنت قوانين البقاء والعدم والصدفة البحتة في التكوين الإنساني والعبثية في مغزى الخلق، أي إنه لا مغزى من كل هذا الخلق، خلقنا مصادفة وخضعنا لكل تلك العمليات من تطور وانتقاء طبيعي وانتخاب ونظرية البقاء للأصلح عن طريق

ART_OF_BOOK
@ART OF_BOOK

قوانين الطبيعة الأم، أما موضوع من أحدث هذه الجلبة بالأساس فهو مجهول، فالطبيعة في نظرهم موجودة منذ الأزل وسوف تبقى للأبد، وحادثة الموت ما هي إلى انتهاء دورة الحياة وبعدها إلى اللا شيء، وتمعنت أكثر فرأيت الكثير من المنشورات لعدة طوائف، وأكثرها انتشاراً كان «شهود يهوه» أو كما يطلقون على أنفسهم «تلاميذ الكتاب المقدس»، وهم بالفعل طلاب مجدون جداً، فهم لا يفوتون أي تجمع عام أو أي احتفال في جميع أنحاء السويد إلا ويحضرون، بل وحتى يطرقون أبواب المنازل ويعرضون الدروس المجانية في الكتاب المقدس، أي إنهم تلاميذ تبشيريون فعالون جداً، وقد بدؤوا في الولايات المتحدة في القرن السابع عشر الميلادي، ولا يؤمنون بالثالوث ولا يعترفون بالطوائف المسيحية الأخرى ويعتبرونهم ضالين، وأعتبرهم الطائفة الأكثر ثقافةً وعلماً والحوار معهم ممتع إلى حد ما، إلى أن نصل أن عيسى ابن الله الوحيد، وأنه سوف يكون رئيس الكهنة بين الله وبني البشر، وأنه سيكون لديه 144 ألف جندي مخلص مؤمن هم من يستحقون الجنة، والباقون من البشر سيسكنون الأرض تحت قيادة عيسى وجنده، كل هذا أعتبره حقهم في الإيمان ولكن ادعاء أن الله رمى الشيطان وزبانيته في 1 أكتوبر عام 1914، وبدأت بداية النهاية حين نصّب الشيطان نفسه حاكم النظام العالمي الحالي، وأنه سيفسد ويفتك ويجمع الجيش العظيم، ويفرض قوانينه استعداداً للمعركة النهائية الكبرى أو ما تسمى «هرمجدون» بينه وبين الله «يهوه» للتنافس على السيادة العالمية فهذا شيء آخر، فهذه إحدى شطحاتهم الكبرى التي تنفر الناس منهم، ولا أتكلم هنا عن «هرمجدون» نفسها فحتى المسلمون يؤمنون بأن هناك معركة كبرى بين قوى الخير وقوى الشر عند نهاية العالم، ولكن أتحدث

عن فكرة قدومه في تاريخ محدد إذ كيف علموا ذلك؟! هل جاء عيسى وأخبرهم؟ لأن معلوماتي أكيدة بأنه لا يوجد شيء من هذا القبيل ولا في أي نسخة إنجيل ولا حتى في العهد القديم، ولكن لهم حرية القول ولنا حرية الإيمان والاعتقاد.

فكرت قليلاً بيني وبين نفسي وقلت: نعم لمَ لا، إنها الحوارات المفضلة لدي، بالتأكيد سوف أقبل هذه الدعوة وأذهب. كتبت رسالة نصية مفادها أني سأكون على الموعد في يوم الجمعة المقبل في المكتبة العامة.

وضعت بطاقة الدعوى على الطاولة وذهبت إلى عملي وكان الجو لطيفاً، درجة الحرارة مقبولة لاستنشاق قليل من هواء السويد النقي، وفي طريقي التقيت جارتنا هويدا وابنها الصغير وائل ذا التسع سنوات، هي أيضاً في طريقها لتوصيل ابنها إلى المدرسة، بدت عليها ملامح الذعر، وأجابت على كل أسئلتي باختصار بكلمة أو كلمتين وهذه ليست من عاداتها أبداً! فهويدا تصنف بأنها ملكة النميمة في القرية ولا تفوتها لا شاردة ولا واردة، سويدية كانت أم أجنبية، هي على علم بكل شيء وعادةً آخذ منها التقرير الأسبوعي عن أحوال جميع سكان القرية.

ـ هويدا، هل أنت على ما يرام؟

ـ كلا يا سلاف، أنا خائفة جداً، بالأمس جاء زوجي وكان قلقاً؛ فقد استدعتنا المدرسة للتحدث بخصوص وائل ابني الوحيد، فذهب زوجي للاجتماع وكان لدي موعد في المستوصف ولم أستطع الذهاب معه، وعاد زوجي قلقاً ولم يستطع الذهاب إلى العمل بعدها، وقال لي أنه لم يعد يطيق العيش هنا، وحان وقت

البحث عن مكان آخر قبل أن نخسر ابننا الوحيد الذي انتظرنا أن يرزقنا الله به عشرة أعوام من زواجنا، وقال أيضاً إنه لا يريد أن يصبح كأبي محمود، وكلنا نعرف قصة أبي محمود يا سلاف، فبعد ذلك اليوم المشؤوم أصبحت سيرته على كل لسان.

ـ اهدئي يا هويدا، أرجوك واشرحي لي بالتفصيل ما الذي حدث وما الذي دار من حوار في ذلك الاجتماع، والأهم ما علاقتكم بأبي محمود ذلك الشائب المسكين؟

ـ نعم سأقول لك، انظري كيف بدأت القصة، عندما دخل وائل للمدرسة ـ وأنت تعلمين كل الإجراءات المطلوبة ـ فعليك أن تحددي ماذا يأكل ابنك من طعام، حلال أم نباتي أم شيء آخر، أو إن كان له نوع معين من الأدوية أو إن كان له حساسية غذائية من شيء ما، وبعد أسبوع من دخوله للمدرسة اتصلت بنا الإدارة وطلبوا أن نتوجه إلى المستوصف لأن وائل أصابته نوبة حساسية من الفطور الذي تناوله، كدت أموت خوفاً وأنا أراه منتفخ الوجه ويبكي ويصرخ ويقول إنه لا يستطيع التنفس، والممرضات ـ تعلمين كيف هن في المستوصف ـ باردات القلب فاقدات الإحساس، فقد قلن لي إنه بخير وهو يزرق ويحمر كل الوقت، وكانت هناك مدرِّسته المشرفة عليه، وقدمت إلي موظفة السوسيال «موظفة من الشؤون الاجتماعية العائلية في الدولة» وبدأت ترمقني بنظرات يسودها البغض، كأنها تلومني على قلة اهتمامي بطفلي، ولم أكن أعلم أنه يصاب بنوبات حساسية تجاه نوع طعام معين، وفي نفس الوقت جاء زوجي من العمل وهو بالكاد يلتقط أنفاسه ونظر

إلى وائل واستشاط غضباً، ثم نظر إلى المشرفة وملمح الغضب في وجهه تكاد تأكل المكان وقال: ما الذي حصل؟

قالت المشرفة بأنه في يوم الخميس من كل أسبوع نقدم ستيك بودنغ بلود، « قطع من الدم البقري المجمد المضاف إليه الفيتامينات والمعادن.» قاطعتها صارخةً: ماذا قلت! لقد قدمت لكم اللوائح المطلوبة ومسجل في الطلب أننا مسلمون ولا نأكل إلا اللحم الحلال وما إلى ذلك، رمقتني مسؤولة السوسيال بنظرة امتعاض.

قالت المشرفة: نعم هذا صحيح، دعيني أكمل إن البروتوكول المتبع في المدرسة واضح، يأكل الطفل ما يرغب أبواه وعندنا كل البدائل، ولكن مع الأسف عندما ذهب وائل للفطور مع أصدقائه في الصف جلس بقرب جون الذي بدوره فطوره يحتوي على لحم الخنزير وستيك البلود بودينغ، فلفت انتباه وائل تلك القطع وظن أنها قطع شوكولا واستأذن من جون وتناول قطعة منها، وبعد نصف ساعة وهم في حصة الرسم ظهرت ملامح نوبة تحسس على وجه وائل، قمنا سريعاً بأخذ التدابير المناسبة، وجاء صديقه جون وقال لي إنه تناول قطعة من الستيك. لأنه سمعني أقول لوائل ماذا تناولت في الفطور، وبأمر من مديرة المدرسة اتصلنا بسيارة إسعاف للاطمئنان على صحة وائل.

يا إلهي يا سلاف، جن جنون زوجي كما تعلمين من ناحية أن ابنه يختنق أمامه، ومن ناحية أنه في الأسبوع الأول في المدرسة بدأ ابنه بتناول الدم المجمد، والذي أثار غيظه أكثر أنهم اتصلوا بمسؤولة السوسيال لتأتي وتحقق في الأمر إن

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كان هناك إهمال في الرعاية من طرف الوالدين كي يقوموا بالتدابير المناسبة، فأنت كما تعلمين أنهم خاطفو الأولاد وخاصةً المسلمين منهم.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، لماذا لم تقولي لي ذلك من قبل، أكملي ماذا حدث؟ قلتها بغضب.

ـ سكت زوجي وتقدم لمسؤولة السوسيال وقال لها: هل عرفت أين الخطأ ومن أين التقصير وعدم الاهتمام سيدتي.

نظرت إليه بتهكم وقالت: إنهم أطفال لا يدركون ما الذي يضرهم وينفعهم، وإنها مسؤوليتنا في توعيتهم والشرح لهم ولا يقع اللوم على الطفل بل علينا، فكان يجب على أبويه تنبيهه بأن لا يأكل من طبق أحد أو لا يأكل شيئاً غير مألوف له، وشرح الأسباب سواء كانت مرضية أو دينية، وبذلك فلا مسؤولية تقع على عاتق المدرسة أو المشرفة، فهم اتبعوا البروتوكول وطبقوه على أكمل وجه، أتمنى لوائل السلامة، انتهى وقت عملي هنا، سوف يصلكم تقرير بالحادثة إلى المنزل.

نظر زوجي إلي وقال لي: نتحدث في المنزل. والحمد لله عدنا بعد ساعة ومعنا وائل، تناقشنا في الموضوع أنا وزوجي وقررنا أنه حادث عابر يحدث كثيراً مع الأطفال. وبعد يومين اثنين وصلنا تقرير عن الحادثة من السوسيال، وكانت المسؤولة قد روت الحادثة وأطلقت لخيالها العنان، ولكن في نهاية التقرير ألزمتنا بكورس مدته عشرون ساعة لي ولزوجي لمساعدتنا في فهم آلية تفكير الطفل وانسجامه مع المجتمع.

ـ طبيعي جداً يا هويدا، فما وقعت عائلة أجنبية مسلمة بين يدي السوسيال إلا وأصابها الأذى، سواء كان تفكيك العائلة بتحريض الزوجة على الزوج، أو بأخذ الأطفال وتسليمهم إلى عوائل سويدية لتبنيهم واتهام الوالدين بالتقصير وعدم الرعاية أو بالصراخ على الطفل وضربه، أكملي يا هويدا.

ـ هذا فعلياً الذي حصل لنا يا سلاف، انتهينا من الكورس بصعوبة لأن زوجي كما تعلمين في العمل وأنا أدرس في المنزل، والآن بعد سنة من الحادثة ومسؤولة السوسيال تزورنا في المنزل لترى وتعاين البيئة التي يتربى فيها وائل، وتنظر ملياً إلى غرفته وحتى إلى البراد ونوعية الأكل وتدون ملاحظتها وترسلها لي في التقرير الشهري، ولكن البارحة عندما ذهب زوجي إلى مجلس أولياء الأمور ضيقوا الخناق عليه، فمسؤولة السوسيال والمشرفة على وائل والمديرة واثنان آخران من منظومة السوسيال كانوا حاضرين، وقالوا لزوجي إنه في الآونة الأخيرة بدت على وائل ملامح الاضطراب وبدأ يتصرف بعنف مع أصدقائه، فهو يشد شعر البنات ويتعارك مع الصبيان ويقذف ألعابه على الأرض، يبدو أنه يتعرض للتعنيف في المنزل، وكأنكم تصرخون في وجهه وتمنعونه غالب الأوقات من اللعب، أو أنه يسمعك وزوجتك تصرخان على بعضكما وبالتالي تتشكل عنده هذه العقد النفسية، ولا سبيل له إلا أن يفرغها هنا في المدرسة وعلى زملائه، فهو كثير الحركة ومشتت الذهن غالب الوقت، ونرجح أصابته

بالـ «أ د ه د» فرط النشاط الحركي، وهو مرض شائع جداً لدى الأطفال، ويجب علينا معالجته بنقله إلى صف خاص وسوف يبدأ بدروس خاصة وتعليمات

خاصة يجب أن تتبع في المنزل أيضاً.

ـ أستغفر الله العظيم، وبماذا أجاب زوجك؟ قلتها بحزن.

ـ تعلمين ـ يا سلاف ـ أن زوجي رجل طيب وحكيم في نفس الوقت، فما كان منه إلا أن قال لهم إن هذا الشيء غير صحيح وعلاقتنا أنا وزوجتي موزونة، ويحظى طفلنا بجميع وسائل الراحة في المنزل وهو طفل وحيد، أي إنه يأخذ كل اهتمامنا وهو طفل مدلل، وأعتقد أن تصرفه هكذا بين أصدقائه هو تصرف طبيعي من طفل عمره تسعة أعوام، فهو لعب أطفال في النهاية، وإنه فرح جداً في المدرسة لأنه يملك من يلعب معه كل الوقت، فهو الطفل الوحيد في المنزل في النهاية. وأصر عليهم بأن عزله في صف خاص ودروس خاصة وإبعاده عن أصدقائه سيتسبب بأزمة للطفل، وسيشعر بالحرج والوحدة في المدرسة أيضاً مما سيزيد اضطرابه، واقترح عليهم أن يبقى في صفه ومع أصدقائه ويتم تقويم سلوكه بالشرح المفيد والسهل وأن هذا ممنوع وهذا مسموح، لكنهم لم ينصتوا له وقالوا: إن هكذا قرار يتم اتخاذه من قبل المسؤولين في المدرسة والممرض الذي سوف يشرف على حالته. وطلبوا اجتماعاً آخر الأسبوع المقبل لكي أكون حاضرة ويشرحون لنا عن الخطوات التالية وما الذي يتوجب علينا فعله في المنزل.

ـ آه يا هويدا! صدعت رأسي بهذه الأخبار، قلبي معك يا حبيبتي، سأدخل الآن إلى المدرسة وأرى إن كان باستطاعتي أن أتحدث إلى المسؤولة عن وائل وأرى إن كان باستطاعتي المساعدة.

جزاك الله كل خير يا سلاف، صدقيني أكاد أموت من الزعل كلما تذكرت كلام زوجي وهو يقول لي أنه لا يريد لابنا أن يتربى في أحضان أناس لا يعرفون مخافة الله، ولا يفرقون بين الحلال والحرام، بل والأسوأ أن يذهب لعائلة مثلية والعياذ بالله، كما حصل مع أبي محمود، أخذوا أبناءه الثلاثة منه بينهم طفل رضيع أخذ إلى عائلة مثلية مكونة من رجلين والعياذ بالله، وفقد أبو محمود عقله وأصيبت زوجته بأزمة قلبية وشلل نصفي. أسأل الله اللطف. وها هو الآن يجهز نفسه مع عوائل أخرى يعانون من نفس القضية وسوف يتوجهون إلى المحكمة الأوروبية العليا لحقوق الإنسان، وسوف يرفعون دعوى كبيرة ضد السوسيال السويدي خاطف الأطفال.

- اهدئي يا هويدا، بإذن الله لن تصل الأمور لهذا المنحى، عليك وزوجك الثبات على مواقفكما والهدوء في التعامل معهم، وإن شاء الله سوف تمضي هذه المحنة، والآن أراك لاحقاً.

- بإذن الله يا سلاف.

***

ـ والد سلاف: ابنتي حبيبتي، لقد رأيت بطاقة الدعوة التي حصلت عليها للحوار عن الوجود وتاريخ نشأة البشرية، وأنا واثق بأنك لم ترددي لحظة بقبول هذه الدعوة بعدما علمت بأن المشاركين فيها هم من العلمانيين والكثير من الطوائف المسيحية، ومن يعلم فقد يكون فيها يهود أصوليون أو طوائف أخرى.

لم أستطع أن أخفي الابتسامة على وجهي.

ـ نعم يا أبي، هذا صحيح وأنا لا أنكر ذلك ولكن عليك بالجانب الإيجابي يا أبي، كم مسلم سوف يحضر هكذا جلسة حوارية في مثل هذه البلدان الإسكندنافية؟

لماذا لا يكون من يمثلنا في كل هذه الجلسات، أليس الإسلام رسالة عالمية يا أبي؟ وهناك الكثير من التشوهات التي طالته عن طريق وسائل الإعلام والميديا، بل يجب علينا أن نزيل كل الشبهات وتقديم ما هو صحيح عن ديننا ورسولنا الكريم.

ـ نعم يا ابنتي، هذا صحيح وأوافقكِ الرأي، ولكن عليك الحذر من هؤلاء إنهم ماكرون ومتقدو الذكاء والحنكة، فهم متمرسون في مجالهم وأنا أخاف بأن يسحبوكِ للماء العكر وهو ملعبهم ويطيحوا بأفكارك أرضاً، ما أقصده ـ يا حبيبتي ـ أنه ثقل كبير ومسؤولية عظيمة، وإنه كما يقال يا ابنتي «رحم الله امرأً عرف قدر نفسه فوقف عنده.»

ـ أفهمك يا أبي، وإني ـ إن شاء الله ـ سوف أكون متيقظة أناقش فيما أفهم فيه ولن أدع الحوار يقودني إلى ما لا أطيقه، وأريد أن أذكرك ـ يا أبي ـ أن الرسول الكريم جاء بالكلمة الحق والبينة إلى قوم كافرين، وتحمل صعوبات كثيرة لنقل هذه

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الرسالة وحملنا الأمانة لننقلها للعالمين، إنها مسؤوليتنا ونحن معنا الله في معاركنا، هم من معهم؟

***

أخيراً إنه يوم الجمعة المنشود، استيقظت باكراً وخرجت على الفور إلى محطة الباصات، ولكن الثلوج كانت قد غطت القرية بالكامل والطرقات سيئة للغاية في مثل هذه القرى الصغيرة، لا أريد التأخر عن هذه الجلسة ولكن مكتوب على اللائحة الرقمية بأن الباص لن يأتي لسوء الأحوال الجوية، إذاً عليّ الانتظار للرحلة القادمة وهي بعد ساعة كاملة من الآن، نعم سوف أتأخر.

بعد ربع ساعة انتظار ها هو الجار المثالي أبو وائل يقف عند المحطة بسيارته.

- كيف حالك سلاف، أتنتظرين الباص؟ أنا في طريقي إلى المدينة إن شئت أوصلك على طريقي.

- شكراً لك أبا وائل، لقد أنقذت يومي الكبير، إن هكذا مواقف إنسانية اجتماعية هي من مميزاتنا نحن كأجانب في هذه البلد، أما بالنسبة للسويديين فهذه من المستحيلات، ولنفرض أنها حدثت فيتوجب عليك أن تدفع ثمن المحروقات ويتقاسم معك ثمن الرحلة.

بالتأكيد سوف أركب فهذا لطف منك، اسمح لي أن أشكرك فلدي اجتماع كبير اليوم وبالكاد سوف أصل على الوقت، لقد علمت بما حدث معكم بخصوص وائل والسوسيال وحديث المدرسة مع هويدا المسكينة وشرحت لي بإسهاب عن

المشكلة، أسأل الله أن يفرج عنكم.

ـ نعم هذا صحيح، ولكنني سأجد الحل إن شاء الله.

بعد صمت دام كل الطريق قطعه أبو وائل:

ـ ها قد وصلنا، تفضلي.

ـ شكراً لك أيها الجار الكريم، مع السلامة.

والآن عليَّ أن أركض للوصول للمكتبة العامة، نعم...نعم لقد وصلت.

***

أمراض المجتمع

@ART_OF_BOOK

إنه العام السادس على التوالي، فأنا أستيقظ كل يوم لأنظر في خيبتي، فمنذ أن وعدتني إيمان بأنها ستتواصل معي فور قدومها إلى أوروبا باتت أيامي تعج بالانتظار، أستيقظ ملهوفاً لعلها أرسلت إلي شيئاً ليعيد الأمل لي في الحياة، ولكني ما إن أتفقد هاتفي وكل وسائل التواصل الاجتماعي حتى تغمرني الخيبة والخذلان..

دعوني أحدثكم عن الخذلان، إنه من أشد طقوس الحياة وجعاً في حياة الإنسان، تكبح فيه كل الأحلام والرسوم الجميلة، تقتل فيه كل الآمال العميقة، وما أشد وطأته حين يأتي من الساكنين في قلوبنا، أولئك الذين بعنا أحلامنا ومستقبلنا في سبيلهم، خذلانهم أقسى من كل شيء في الحياة، فالغريب ينسى وكأنه لم يكن، أما القريب قريب القلب حيث خذلانه يَسكنه، كأنني ولدت في زمن الخذلان.

مسحت دموعي ونظرت في ساعتي وكانت قد قاربت السادسة صباحاً، حضرت قهوتي وتذكرت أن غداً يوم الميلاد، ثم تذكرت أني لم أشترِ الهدايا لأبناء أختي التي انتقلت بدورها إلى ألمانيا للعيش هناك هي وعائلتها، كانت أختي هي الوحيدة التي تبقت لي من عائلتي، فلا صلة لي مع أخي أو أبي المزعوم أو أي أحد من الماضي، أما بخصوص جدي وجدتي فهما يعيشان بهدوء وفي بعد عن الهواتف الذكية ووسائل التواصل الاجتماعي، فأنا بالكاد أتكلم معهما مرة في العام.

أرسلت رسالة نصية لأختي معتذراً، وأرفقتها بإشعار تحويل مبلغ لكي تشتري للأولاد شيئاً لطيفاً وتقول لهم «ميلاد مجيد» نيابةً عني، وبعدها مشيت إلى العمل.

PART OF BOOK
PART_OF_BOOK
@PART_OF_BOOK

إنه عنصر المفاجأة يأتيك على غفلة، وعلى حين غرة ينادي مسؤول العمل: «أين هو رجلي صاحب الوجه الأسعد هنا؟».

فأتعجب أنا وأبحث معه لينادي باسمي قائلٌ: «تعال يا وجه السعادة، أنا أحب الابتسامة والأمل في وجهك.» فأتوجه إليه ووجهي تغلبه تفاصيل السعادة التي لا أعلم مصدرها والأمل الذي لا ناقة لي به لأستلم هديتي منه بمناسبة العيد وأشكره، ثم أعود لمكان عملي مسرعاً لأنظر في المرآة، يا إلهي، إنني أتوق لرؤية تلك الملامح التي ناداني بها، أريد رؤيتها أريد أن أؤرخها، وما إن وصلت إلى مرآتي حتى رأيت الانعكاس الذي اعتدت كل يوم على مواجهته «الاختلاف الظاهري» إنه مرض الأقوياء الضعفاء، ومع ذلك كانت لحظات جميلة عندما علمت أن اسمي تسبقه كنايات السعادة والأمل لمن يراني ويعمل معي أو يعاشرني، حقاً هذا أنا؟

إذاً لماذا أنا منهك من الداخل، ما سرّ كل هذا الألم والحزن العميق؟ أهو فراق أمي أم فراق عائلتي أم فراق إيمان أم فراق بلدي أم فراق فريق المتنمرين الذين مروا في حياتي؟ يبدو أنه هناك الكثير من الفراق في حياتي، أهذه هي الحياة فراق في فراق؟

مع ذلك عليَّ أن أمضي قدماً، فقريباً جداً ينتهي تعديل شهادتي وأبدأ بممارسة ما أحب وتعود لي الحياة، ولعل إيمان تستسلم وترسل لي أي شيء يقول إنها بقربي، وينتهي كلّ هذا الألم وينتهي بدوره زمن الانتظار.

اقترب نحوي فراس ليهمس في أذني:

ـ ما الأخبار يا صديقي، ما هي مخططاتك ليوم غد، هل هي كحال كل إخوتنا المسيحية؟ قداس وبعدها تناول النبيذ حتى السكر وبعدها إلى المأدبة الفاخرة وطبقكم المفضل الخنزير المشوي. قالها مبتسماً مازحاً كعادته في التنقير على كل عادات المسيحية التي لا يعجبه أيّ شيء منها.

رددت عليه مبتسماً: لا يا حبيبي، سأكون في منزلي أطالع كتاب صديقي المفضل دارون كما تسميه أنت.

ضحك كثيراً وقال لي: يا صديقي، القليل من العلم يؤدي إلى الإلحاد، أما الكثير منه فيؤدي إلى الإيمان قطعاً.

تفاجأت وقلت له: ما دليلك على ذلك؟

قال لي انظر من حولك إلى كل العلماء الذين سبقونا في العلم والمعرفة في جميع مفاهيم الحياة، كلهم في نهاية المطاف توصلوا إلى نقطة البداية سواءً كانت الهيدروجين أو الكربون أو الانفجار العظيم أو البروتون، دعني أسهل الأمر عليك، ضع كل بدايات الأشياء المادية وغيرها إن أردت، ففي النهاية توصلوا لوجود موجد لهذه الأشياء، فمنطقياً لا يوجد شيء من العدم، إذاً موضوع الموجد ـ كما يسمونه ـ هو شيء بدهي، وكل من هؤلاء يسمي الموجد حسب إيمانه، وكل العقلاء منهم أجمعوا بوجود القوى العظمى، ولكن الاختلاف يكمن في السؤال المعقد الذي يطرح «من يوجد خلف هذه القوى ومن هو الذي يتحكم بها، وعليها

بنيت المعتقدات المختلفة السائدة بين الناس؟». أما أولئك الذين يدعون بأن الصدفة المحضة هي أساس الخلق، وهي سر هذا التوازن العظيم بين قوى الطبيعة والكواكب والأوكسجين والذرات واختلف الخلق بين الحيوانات والنباتات والبشر، ثم إنهم يريدون أن يقنعوا الناس بأنها صدفة بحتة، فإن ذلك ضرب من العبثية المفرطة.

أما بالنسبة إلى أولئك الذين حاولوا تفسير الظواهر والقوى الكبرى في الطبيعة ونشوء الخلق واختلافهم وتطورهم، وقدموا علمهم واجتهادهم للناس ليساعدوهم على فهم منظور الحياة ككل، فقد أسيء فهمهم من قبل الكثير من عامة الناس؛ فهم كانوا يدرسون الكيفية أي كيفية الوجود وليس كيفية وجود الموجد، فكل أبحاثهم تركز على ما بعد الانفجار الكوني العظيم، ولا أحد استطاع تقديم ولو حتى بحثاً عما قبل الانفجار، ماذا أو كيف كان قبله والأهم لماذا ومن محدثه! بل تركزت كل دراساتهم على ما بعد الانفجار العظيم وتكوين الأرض ونشأتها وظهور الكائنات الحية وتطورها وما إلى ذلك من علوم الحياة.

نذير: وجهة نظر سديدة مع أنك صدعت رأسي يا رجل، ولكن بخصوص الاحتفال بالعيد فأنت تعلم أني أسكن وحدي ولست مهتماً بالاحتفال بأي مناسبة دينية كانت أم ثقافية.

فراس: أعلم يا صديقي، لذلك أقسو عليك في مزاحي؛ وانتقادي للمسيحيين ما هو إلا عتب ومحبة، صدقني إن ذلك يحزنني عندما أرى أنهم يذهبون للقداس ويقرؤون من نفس الكتاب المذكور فيه أن الكحول ولحم الخنزير والزنا حرام؛

PART OF BOOK

ويذهبون بعدها لممارسة الثلاثة معاً مدعين أنهم يحيون عيد مولد المسيح، أيحيون ذكراه بما منعهم عنه! إنهم إن كانوا يعتقدون أنه إلههم فهم يسيئون إليه، وإن كانوا يعتقدون أنه ابن الإله فهم لا يطيعونه، وإن كان نبياً بالنسبة لهم فهم يقتلون تعاليمه ونبوءته مرة أخرى بعد أن قتله اليهود في المرة السابقة حسب زعمهم.

نذير: دعك من هذا يا فراس، ولا تنسَ أن تأتي لشرب القهوة معي في العطلة، أريد أن أعيد لك كتابك «مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء» لـ (أحمد ديدات) وأناقشك فيه قليلاً، والآن دعني أكمل عملي.

***

ـ أخيراً جاء وقت استراحة الغداء المنتظرة أشعر بالدوار من كثرة الجوع. وقفت في طابور تقديم الطعام في صالة المطعم، وها هي ماتيلدا أكثر إنسانة استغلالاً للمواقف الدينية والأعياد المسيحية والإسلامية والعادات غير الراضية عنها من قبل المؤمنين بأي شيء غير الطبيعة والعلم، وتعتبرها مضحكة ومهزلة للعقل البشري، تتقدم لتقول لي:

ـ ميلاد مجيد يا نذير، أم يجب عليَّ أن أقول ميلاد شمس مجيد. وأظهرت ابتسامتها الخبيثة، أجبتها بكل برود: ميلاد مجيد لك ولعائلتك؛ هل طلبت سلطة الأفوكادو المفضلة لديك أم غيرت رأيك وبدأت تناول اللحم من جديد؟

ابتسمت وقالت: هل تعلم أن الخامس والعشرين من ديسمبر هو عيد الشمس ويحتفل به أولئك الذين يعتبرون الشمس إلههم، وأن قيصر الروم قسطنطين بعد

ART OF BOOK
©ART OF BOOK

معركته العظيمة والمعروفة هو من قرر أن ميلاد المسيح سوف يكون في نفس يوم مولد إلهه إله الشمس وهو الخامس والعشرين من ديسمبر، علماً أن جميع القصص والروايات في الكتب القديمة مقدسة كانت أم تاريخية تقر بأن المسيح قد ولد في فصل الربيع أقرب منه إلى الصيف، أي ما يقارب الشهر الثالث أقلها اعتباراً من كل عام، ولكن مع ذلك تحتفلون به كأنه اليوم الحقيقي لمولد المسيح، وتقدمون القرابين والصلوات والهدايا والزيارات العائلية مع أن التاريخ والكتب المقدسة تنفي ذلك، إن ذلك أمر غريب، أليس كذلك! ولكن لا عجب لأولئك الذين يعتبرون الصليب والكنيسة ويوم الأحد مقدسين عندهم، فقد قرر قيصر الروم مسبقاً وهو من أشهر أتباع عباد الشمس في ذلك الزمان بالنيابة عن المسيحين يوم مولد ربهم ومكان العبادة لهم وهي الكنيسة، ويومهم المقدس لتلاوة الصلوات وهو محض صدفة أن يصادف اليوم المقدس لأتباع عباد الشمس ومصادفة اسمه سان دي يوم الشمس بالإنكليزية، واتخاذ الصليب كشعار ورمز ديني مقدس بعد أن أمرهم القيصر بوضعه كرمز لهم على دروعهم ولباسهم لكي يميزوهم ولا يقتلوا بالخطأ في المعركة، علماً أني لا أذكر أن المسيح كان قد اتخذ الصليب كرمز للمسيحيين ولم يأمرهم بذلك، ولا حتى أذكر أني قرأت أنه يوجد يوم معين كان المسيح يجمع فيه أتباعه وحواريه ويصلون، ولا حتى أذكر أنه قد أمرهم ببناء الكنائس، بل على حد معلوماتي ومصادري فإن أول كنيسة كانت قد شيدت بأمر من قسطنطين نفسه في عام 324م، أي بعد المعركة العظيمة للقيصر قسطنطين، وتكريماً لجهود المسيحيين الذين انضموا إليه في معركته للاستيلاء على الحكم، ولقب بعدها من قبل المسيحيين بـ«محبوب الإله وحامي الإيمان ونصير يسوع»، مع أنه لم يُعَمَّد

إلا على فراش الموت كما تقول الروايات، إنها مصادفات عظيمة، أليس كذلك يا نذير؟

بدت على نذير ملامح الغضب ثم قال: ها هو صحن الأفوكادو والأعشاب الفريدة صديقة البيئة التي أتت محملة على متن الطائرات والبواخر والسيارات والقطارات من جميع أنحاء العالم، وعلى حسب معلوماتي ومصادري فإن كل ما سبق يعمل على أسوأ أنواع المحروقات، ويصنف العدو الأول للبيئة والطبيعة، ويكلف الشعب والحكومة السويدية والأحزاب المناصرة للبيئة الكثير من أموال الضرائب لبناء فلاتر عملاقة للتخلص من هذه الانبعاثات، وكل هذا من أجلك أنت كي تتناولي سلطتك الصحية المفضلة، وأرجوك لا تقولي لي بأنك تفعلين ذلك لأنك تشعرين بالأسى والحزن على تلك الحيوانات المسكينة التي نقتلها ونأكلها؛ لأنني بالأمس وعن طريق الصدفة وضعت لك لايك أنت وعائلتك على الانستغرام، كنتم في رحلة صيد للطيور بهدف المتعة، وإن لم تخني ذاكرتي فقد رأيتك في إحدى الصور تتباهين بأنك اصطدت ثلاثة طيور وضحكتك تملأ وجهك، بينما صديقك الذي لديك طفلان منه وكل منكما يسكن في بيت منفصل بدا عليه الحزن لأنه لم يصطد إلا اثنين! يبدو أن لجميع البشر في هذه الحياة مصادفات وتناقضات غريبة، أليس كذلك يا صديقتي؟

أتمنى أن تكون وجبتك شهية، أراك في الداخل. أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى لتلقي السلام على صديقتها وأخذت طبقها ومشت بالاتجاه المعاكس لاتجاهي.

ART_OF_BOOK
©ART_OF_BOOK

لقد فقدت شهيتي حقاً من هذا الحديث البائس، فكلما ذهبت إلى مكان أسمع وأرى الجميع مختلفين على كل شيء بل على أي شيء، وفي كل مكان يدور نقاش ما يرهق الأعصاب، لقد أثارت اهتمامي وغيظي هذه الإنسانة المتناقضة، والآن عليَّ أن أراجع كل هذه المعلومات التي أمطرتها علي في هاتين الدقيقتين في العطلة، فإن كانت محقة بهذه الادعاءات فهذا شيء خطير، وإن كانت كاذبة فسأدعُو بأن تحل عليها لعنة لافترائها على الرب وعلى الدين.

وأخيراً وجدت صديقي صاحب الحديث الممتع الذي لا يحمل في طياته الكثير من المعاني المخفية، فهو يحب أن يعيش الحياة كما هي ببساطة وبلا تعقيدات ولا يبالي بشيء، جلست بجانبه إلى الطاولة لتناول الغداء بهدوء، واستقبلني بحفاوة وتحادثنا بكلمات لطيفة عن الأحوال بشكل عام والطقس وعن الطعام وأشياء بسيطة، وألقيت دعابة خفيفة وبدأت أصوات الضحكات الخفيفة ترتفع، نعم أعتقد أن هذه الأشياء تنقصني في حياتي المعقدة: الضحكات الخفيفة، الأحاديث البسيطة، الروائح الجميلة والكثير الكثير من الأمل.

ـ قل لي يا ياكوب، هل التقيت بالحبيبة المثالية التي تطمح إليها؟ فإني أعرفك منهمكاً بالبحث عن شريكة حياتك في تطبيقات التعارف؛ وتتململ من حياة العزوبية.

ياكوب: لا أريد الكذب عليك يا صديقي، إني أحاول كثيراً وبشكل جدي، وليس كسائر الناس الذين ينشئون حسابات وهمية لكي يحصلوا على الجنس لليلة واحدة، أو ليحصلوا على دعوة مجانية للعشاء واللهو، وفي أغلب الأحيان لدي

©ART OF BOOK

موعد غرامي كل أسبوع، ولكن الحظ لم يتعثر بي بعد.

نذير: هكذا إذن... قل لي ما الذي حصل في آخر موعد غرامي، ألم تكن الفتاة بالجمال الكافي لكي تسرق قلبك؟

ـ دعني أكون واضحاً، لقد كانت فاتنة الجمال وحديثها مسلٍّ جداً وبدت هادئة الطباع، لكن عندما تحدثنا عن الجنس تبين لي أنها عذراء وهذا شيء نادر، فكما تعلم هنا في السويد أن تكون فتاة في عمر التاسعة عشر وما زالت عذراء هذا شيء غريب، خفت وتراجعت، تخيلت أنها تحمل مرضاً نادراً أو متعصبة دينياً أو عندها عقدة نفسية جعلتها شاذه عن الفتيات في مثل عمرها، فجميع الفتيات هنا يتباهين بعدد الأشخاص الذين أقمن علاقات جنسية معهم وهذا شيء طبيعي، بل يجب أن يكون للفتاة هكذا تجارب ويجب أن تكون كثيرة، وهذا هو الطبيعي؛ ثم إني ـ يا صديقي ـ لا وقت لي كي أعلمها طريقة ممارسة الجنس وأضيع وقتي على جهلها وتخلفها عن مثيلاتها من الفتيات، وفي النهاية لا قلب لي بممارسة الجنس وأرى الدماء تنزف منها، لا أريد أن تكون الذكرى الأولى الحميمة لنا دموية ومقرفة، أما السيناريو الأسوأ بالنسبة لي فهو أن تكون متعصبة لدين معين، ولديها كل آفات الأديان من عقد نفسية وضوابط مريبة، وبالتالي سوف لن نمارس الجنس لأن عقدتها تفرض الزواج أولًا والجنس لاحقاً، وأنت تعلم أننا في القرن الحادي والعشرين وما يزال الجهل يسيطر على عقول البعض، لذلك تناولت العشاء معها وقلت لها بأننا لا نستطيع المضي قدماً في هذه العلاقة.

نذير وقد توسعت عيناه دهشة: فأنا أعلم أن هذا شيء متاح، وبدهي بالنسبة لهم

@ART_OF_BOOK

أن يكون للفتاة العشرات بل المئات من العلاقات الجنسية السابقة، وأعلم أنهم لا يتزوجون بل فقط معاشرة ومساكنة، وأعلم أن الأطفال لا يعلمون من هم آباؤهم، وأن المرأة لا تبالي بتعدد الأطفال من آباء عدة، وأن الرجل لا يبالي بعدد الأطفال للمرأة من رجال غيره، أعلم كل هذا الهراء وأراه أمام عيني في كل مكان هنا، لكن اندهاشي كان بأنه قد ذعر من كون الفتاة عذراء، ومن أنها قد تكون مصابة بمرض غريب أو لديها عقدة نفسية أو أنها مؤمنة بديانة ما، لهذا هي عذراء شاذة عن كل الفتيات، بل إن الصعقة كانت أنه يريد فتاة تملك الخبرة، فهو لا يطيق أن يعلمها كل شيء من البداية، واعتبر ذلك مقرفاً بأن يكون هو الشخص الأول الذي سوف يمارس معها الجنس، لأنها ستنزف الدماء في أول اتصال جنسي لها وهذا شيء آخر.

أي أنه لا يريد فتاة تتصف بالعفة والأخلاق وليس لها ماض جنسي، وهي نظيفة تماماً من كل الأمراض الخطيرة والغريبة التي نسمع عنها نتيجة العلاقات الكثيرة والشاذة التي تمارس، بل يريد العكس تماماً! وما يثير السخرية وصفه إياها بالمتخلفة أيضاً. يا له من انحلال أخلاقي عظيم! تمنيت في وقتها أن أتلقى الضربة القاضية من حبيب نورماغوميدوف ويغمى عليَّ ويوقظني أحدهم، ويقول لي إنه مجرد حلم؛ هذا ليس الواقع ولا يوجد هكذا أفكار أو أشخاص في الحقيقة.

هززت برأسي له وابتسمت وتناولت غدائي صامتاً مذهولًا مما سمعت، واضطررت بعدها لأخذ إجازة ساعية وذهبت للمنزل. تناولت أقراصي المهدئة، وإلى سريري على الفور ولا سبيل لي إلا النوم.

@ART_OF_BOOK

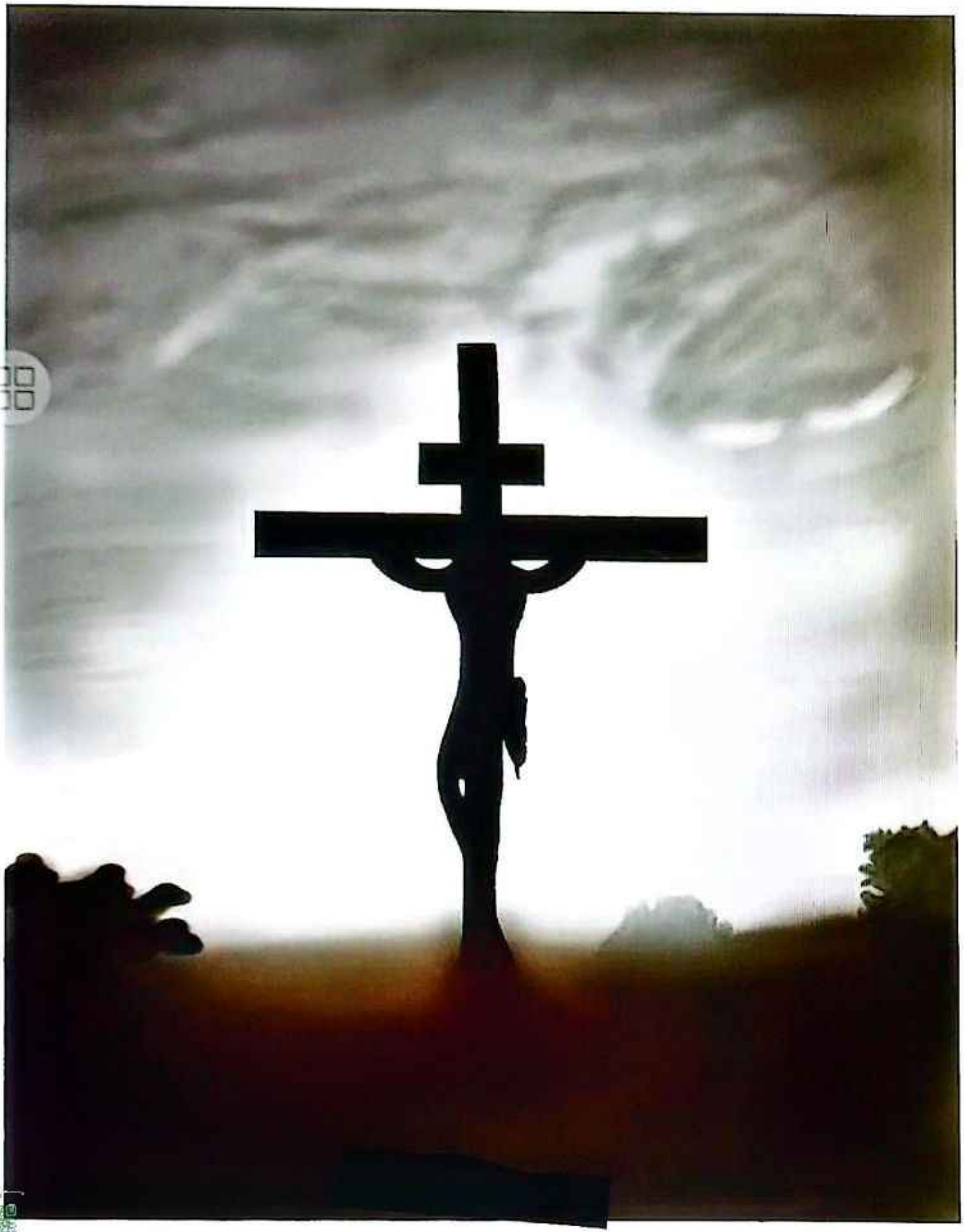

الإله المعذب المصلوب

@ART_OF_BOOK

قرع باب البيت بثلاث دقات عندها علمت أنه فراس، فهو خفيف الظل ويفضل أن ينقر ثلاث مرات على باب البيت لكي أعلم أنه هو وأفتح له الباب، ولا أتجاهل النقر على الباب كعادتي. دخل فراس ملهوفاً يحمل في يديه كتباً جديدة رماها بين يدي ثم قال: أعتذر عن تأخري كل الشهر يا نذير، وأتمنى ان تكون وصلتك رسالتي، فقد حصل أمر عائلي طارئ، واضطررت إلى السفر إلى إسطنبول لقضاء الشهر الأول كله مع والدي ليتعافى من أزمته القلبية.

ـ لا عليك، وصلتني رسالتك وأتمنى أن يكون والدك بحال أفضل الآن.

في الحقيقة كان غيابك هذا مفيداً جداً بالنسبة لي، فقد تمكنت من مراجعة الكثير من الأشياء خاصةً بعد قراءتي لكتاب أحمد ديدات عن الصلب، فقد قلب الموازين في عقلي وخرّب الكثير من مبادئي وجعلني أفكر من جديد، بل وأشك في كل النصوص التي كنت أقرؤها ودفعني للعودة إلى مراجعها، وبصراحة أشعر بالضياع والتشتت التام، فبعد أن أثارت ماتيلدا شكوكي بموضوعها حول بدايات المسيحية ودمجها مع عبادة الشمس، اضطررت إلى العودة إلى البداية والبدء من جديد، لا أخفيك القول يا فراس، وأنت تعلم أني لست متشدداً ولم أكن على دراية بالدين والطقوس وكل تلك الأشياء، فقد كانت زياراتي للكنيسة محدودة، أعتقد أنها ثلاث مرات في كل حياتي، ولم أقرأ ولا سطراً واحداً من كل الأناجيل على تنوعها واختلافها، ولكن كنت أؤمن بالثالوث، وبأن المسيح قد قدم نفسه للتضحية في سبيل كل من آمن به، وبأنه قد حمل آثامنا وأخطاءنا معه على الصليب وقدم روحه ودمه فداء لنا.

@ART_OF_BOOK

تنهد فراس تنهيدة عميقة وأشعل سيجاراتين لي وله ثم أردف قائلاً: أفهمك جيداً يا صديقي، فقد مررت بنفس تجربتك عندما قدمت إلى السويد، كنت قد عشت طوال حياتي ولم أفكر في الدين وطقوسه، ولم يكن لدي الوقت الكافي للتفكر في الحياة وموجدها. فكنت أذهب إلى الجامع في كل جمعة كسائر الناس وأهل منطقتنا، وأصلي كما يفعل أبي وأصوم كما تصوم أمي، والحرام والحلال أسمع عنهما من أصدقائي ووالدي ومعلم الديانة في المدرسة، وكنت أقرأ القرآن قراءة سطحية في شهر رمضان كل عام، وكان حفظ أربع أو خمس سور قصار كافيات لإتمام الصلاة. والحجاب للمرأة شيء بدهي، فكل اللواتي حولي يرتدينه، ومن لا تفعل ذلك تصنف تصنيفات مجتمعية بشعة والكثير من الأشياء الغريبة، وبالتالي كان الدين بالنسبة لي هو موروث من الآباء والمجتمع ومحكوم بالعادات والتقاليد. ولكن حينما عبرت البحر ووضعت قدمي في أوروبا أدركت حقيقة الأمر، وأيقنت بأن الحياة ليس فقط ما قاله أبي وأستاذي والشيخ في الجامع، وبأن العادات والتقاليد يوجد غيرها ومتعددة بتعدد الدول والبلدات التي فيها، وبأن كلمة الدين ليست مرتبطة فقط بالإسلام، بل هناك الكثير من الأديان والمعتقدات في كل بقاع الأرض ومعتنقوها بالمليارات وليس بالملايين. وبدأت بصدام يكاد يكون دائماً مع المجتمع الغربي، وأصبح من الصعب جداً الاحتكاك مع الناس لأنهم في غالب الأوقات يطرحون أسئلة صعبة عن معتقدي وطريقة ممارستي للدين، وبالتالي اضطررت إلى أن أعيد هيكلة إيماني مع أني لم أفقد الإيمان لحظة بوجود الخالق، ولكن بدأت البحث عن ماهية أوجه العبادات الأمثل وكيفيتها، وهل اتباع رسالة محمد عليه الصلاة والسلام هي السبيل للنجاة من النار، لأنه بدا لي أنه يوجد

ART_OF_BOOK
@ART_O"_BOOK
٢٧٠٥١٩٤٧٩٣

خيارات، فهناك الكثير من الأنبياء وكلهم على حق ويدعون برسالة واحدة هي رسالة التوحيد لأنهم كلهم من عند الله، ولكن أنا من يتوجب عليه الاختيار. وعلى هذا الأساس بدأت التمحيص والقراءة عن تاريخ الأديان كلّ على حدة، وبدأت بالحصول على أجوبة مقنعة لعقلي ولروحي، وبالتالي حصلت على السلام الداخلي، وذهبت من ذهني كل تلك الأفكار المتزعزعة والمشوهة التي حصلنا عليها ونحن صغار، ففي النهاية الحقيقة واضحة ولا أحد يستطيع أن يحجب الشمس بإصبعه، وآمنت بكل الأنبياء واتبعتهم وآمنت بأن القرآن كلم الله لا تحريف فيه، هو كتابي ومرشدي ومحمد هو خاتم كل الأنبياء.

والآن دعنا نعود إليك يا نذير، قل لي ما رأيك بالذي قرأته، وبكل تلك التشوهات التي يروجون لها ويغسلون أدمغة الناس بها؟

بدت على نذير معالم الارتياح، فليس هو فقط من يشعر بكل تلك الاختلافات والتناقضات التي كان يعيشها سواء مع عائلته أو في تعلمهم للدين. وقال أوافقك الرأي في كل ما قلته، ولكن الاختلاف بيني وبينك بأن ما قرأته ينسف القواعد الأساسية في الإيمان لدي ويصب في المرتكزات والدعائم التي تقوم عليها ديانة بأكملها، فأنا لا شك لدي بوجود الله، ولكن الاختلاف كان بماهيته وتجسيده، ففكرة الثالوث لم تعد مقنعة بعد اطلاعي على الحقائق، ففكرة أن الله شخص والمسيح شخص والروح القدس شخص وفي النهاية كلهم شخص واحد لا تدخل في عقل عاقل، وفكرة أن المسيح تجسيد لله على الأرض أيضاً مرفوضة، فلم أسمع من قبل بإله لديه كل صفات الألوهية يصلب من قبل بشر هو خالقهم، إنه تناقض يجب ألا يمر مرور الكرام بعد

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الآن، ثم إن موضوع المراجع المسيحية مختلفة لأنها بالأساس لم تكن من المسيح نفسه أو من الله، فكل إنجيل له رواية ورؤيا مختلفة عن الأحداث، ولا يوجد أي تطابق في كل الكتب التي تعد مقدسة ويتبعها الملايين من البشر، فكل منها كتب في زمن معين ومختلف باختلاف راوي الحادثة، ثم جاء التعديل عليها بما يتناسب مع الكنائس، ودعنا لا ننسى دور الملوك والسياسيين عبر التاريخ في تحريف وإظهار نسخ جديدة بقوانين وشريعة جديدة، والآن في القرن العشرين ظهرت لنا آخر نسخة منقحة تعتبر من الإنجيل ويتوجب علينا اتباعها بعد مضي أكثر من ألفي عام على قدوم وذهاب المسيح. هذا ضرب من الخيال. وبالنسبة للصلب لم أفهم فكرة أنه لماذا يقوم الله بتقديم ابنه أضحية، ألم يستطع أن يسامحه فقط، أليس هو الله ولديه كل صفات الربوبية المطلقة! وفكرة أن المسيح كان يستطيع تخليص نفسه ولكنه فضل تقديم نفسه فداء لنا وتكفيراً لذنوبنا لم أفهمها، ما هو الدرس القيم الذي نستفاد منه، هل بأنه إذا قام أحد جيراني بقتل شخص ما فأنا أقوم بتقديم ابني للعدالة وأصلبه حتى يموت تكفيراً لذنب جاري! وما العبرة من قتل الإله نفسه، وهل الإله يعتبر إلهاً إذا كان قابلاً للموت! تعارض خطير بل يوجد خطأ في فهم وتعريف الإله.

خلاصة القول يا فراس، لم يعد هناك ثالوثٌ في نظري بل هو الله فقط، والمسيح هو نبي من عند الله فقط، والروح القدس هي تعاليم عيسى ومعجزاته التي أعطاه الله إياها ليقنع بها قومه بالهداية. ثم إنه في كل نصوص الأناجيل، في حال أردت اتباعها والإنصات إلى تحريفاتها، لم أجد صفة الربوبية والألوهية للمسيح، ولم يدّعِ يوماً أنه إله أو جزء منه. أما موضوع صلبه فهو باطل لأنه جاء لهم بكل وسائل الإثبات بأنه حي

يرزق ولم يمت، وكل روايات الأناجيل المختلفة تثبت هذه الحقائق، وبقراءتي للكتاب الذي رشحته لي وجدته مختصراً ووافياً وكافياً لبراءة المسيح من كل تلك الادعاءات التي ألبسوه إياها ظلماً.

فراس: أحسنت القول يا صديقي، وأسأل الله أن يهديك إلى طريق الحق والصواب دوماً، واسمح لي بالقول أن أهدافنا باتت مشركة، وهي البحث والتحري عن الحقيقة، ولكل منا طريقته في الاستيعاب والفهم، أما بالنسبة لي فلم أجد أي اختلاف في رسالات كلّ الأنبياء، فجميعهم كانوا يدينون بالإسلام والإسلام هنا ليس مرتبطاً بمحمد عليه الصلاة والسلام، بل هو الخضوع والاستسلام لإرادة الله والإيمان بوحدانيته، وهي الرسالة الوحيدة التي بُعث كل الأنبياء لنشرها، وما محمد إلا نبي من أنبياء الله أُرسل ليصحح ما ساد من تشوهات وتحريفات وخرافات وإشراك في تلك المجتمعات، وجاءت معه كلمات الله الحق المحفوظة والمضبوطة في كتاب كامل وشامل وفيه جاءت التعليمات الأخيرة والختامية، وبعدها ضمن الله لنا حفظه من التحريف منذ نزوله وإلى يوم القيامة، وختمت الرسالة التي بدأت بآدم، أي من منبع الحكاية، فهي بدأت بنفخة الروح من الله وختمت بتوقيع الله عز وجل في كتاب كلماته القرآن الكريم ومع خاتم الأنبياء الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

في الختام اسمح لي بأن أنصحك بقراءة القرآن الكريم، وابدأ من سورة مريم لعلك تجد فيها كل تلك الأجوبة التي ما زالت مجهولة بالنسبة لك عن ماهية المسيح وروايته الحقيقية منذ البداية أي قصة مريم، وأحضرت لك نسخة من

@ART_OF_BOOK

القرآن الكريم وبعض الروايات وتفسيرات عن المسيح ابن مريم وقصصاً قصيرة عن سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

نذير: شكراً لك يا صديقي، أعتقد أني بأمس الحاجة لكل تلك الأجوبة عن الأسئلة التي أثيرت في ذهني، فأنا في حيرة من أمري وأشعر بالضياع وعدم الاستقرار الداخلي بين أفكاري، وللأمانة فقد أضعت السلام والأمان الداخلي منذ زمن طويل، فمنذ وفاة أمي وروحي متعبة تفتقد إلى الإيمان، وكلما سمعت عن حادثة انتحار من حولي وهي كثيرة في السويد كما تعلم؛ لأن روحهم خالية من الإيمان، وحين يضيق الخناق عليهم يرمون بأنفسهم إلى الموت ظانين بأنه نهاية الألم للظروف التي هم فيها، وسوف يذهبون إلى العدم أو اللا شيء الذي أتوا منه، فإني أخاف أن تقع روحي في هذه الغلطة وتضعف نفسي في ظرف ما معين، خاصة وأن فجوة نسف الإيمان والمعتقد الذي آمنت به خلال سنواتي التي عشتها قد اتسعت في صدري، وأحياناً أتخيل طريقة انتحاري وأختار الهارا كيري اليابانية المشتقة من الساموراي، فأرى نفسي أختار السيف الحاد بعناية، وألبس حلة بيضاء وأكتب قصيدة شعرية أعلن فيها انهزامي أمام الحياة، وأغسل عاري وهزيمتي بتقطيع أشلائي أمام الناس جميعاً.

فراس: يا لها من طريقة درامية بل دموية بحتة! (قالها ضاحكاً)، اهدأ يا صديقي، فما تزال في ريعان شبابك ومن يعلم ما ينتظرك في الغد! ما تحتاجه هو الإيمان لتهدئ روحك وسوف يصحبها تلقائياً السلام والأمان، وأعتقد أنك بحاجة إلى الحب بل الكثير منه، فالوحدة قاتلة وتقود إلى الجنون في نهاية المطاف؛

@ART_OF_BOOK

أرهقت نفسك كثيراً في الآونة الأخيرة بين العمل والدراسة وانشغالك في البحث عن الحقيقة، أعتقد أنه الوقت المناسب لك للتفكير في الذهاب برحلة خارج السويد لترتيب أفكارك وكسر الروتين الذي تتبعه، والاستمتاع بالحياة والنظر في الطبيعة وبديع الخالق، وبها تعيد شحن نفسك بالطاقة الإيجابية لتواجه الحياة بإيمان جديد وروح جديدة، ولعل الله يكرمك بحب جديد، من يدري.

نذير: فكرة سديدة وفي وقتها وبذلك أستطيع استغلال الهدية التي تلقيناها من العمل في يوم الميلاد، وهي تذكرة ذهاب وإياب على الخطوط الإسكندنافية البحرية، وهي صالحة للشهر الثالث من هذا العام مع أنني لست صديقاً للرحلات المائية، فبعد ركوبي في البلم المطاطي في رحلة اللجوء تكونت لدي عقدة خوف من البحر، ولكن أفضل طريقة للتخلص من المخاوف هي مواجهتها.

شكراً لك يا فراس، أنت خير صديق وخير سند.

المناظرة المنتظرة ـ المرأة في الأديان

كانت الجلسة قد بدأت للتو ويوجد قرابة 50 شخصاً في الصالة، إنه عدد كبير نسبياً بالنسبة للسويد وسكانها، ويبدو أن لكل شخص مكاناً محجوزاً مسبقاً، بقيت واقفة أستمع إلى شخص ما على المنصة يوضح فكرة حاجتنا للاستغناء عن الأديان، لأن العلم أخذ مكانها بجدارة واستحقاق، وما هي إلا ثوان حتى جاء أحدهم إلي يبدو أنه من منظمي هذه الجلسة، طبعاً سوف ألفت الانتباه؛ فأنا المرأة الوحيدة التي تضع الحجاب في هذا الاجتماع.

ـ مرحباً بك في جلستنا، هل أنت من المدعوين أم أنك من العامة؟

ـ مرحباً، أنا من المدعوين واسمي سلاف.

ـ نعم أهلاً بك سيدة سلاف، أنا من قمت بإرسال الدعوة لك، في الحقيقة أنا من سكان القرية التي أنت منها وسمعت عنك في العديد من المناسبات بين أصدقائي في القرية. ما علينا، أنا سعيدة جداً أنك تمكنت من الوصول ولو متأخرة، وضعت لك كرسييك في الوسط مع ممثلي الأديان ووضعت اسمك ضمن فقرة سؤال وجواب، وهي فقرة يجتمع فيها ممثلو الأديان ويجيبون عن الأسئلة المطروحة بشكل مباشر كل على حدة، ما رأيك، هل هذا مناسب لك أم تفضلين أن تكوني مع العامة وتشاركي في طرح الأسئلة فقط في جلستك الأولى إن كنت غير مستعدة؟

ـ شكراً لك، أقدر سؤالك هذا ولكن أنا هنا لإعطاء الأجوبة وأنا على أتم الاستعداد.

ـ إذاً تفضلي في الفقرة القادمة بعد قرابة نصف ساعة، وفي ذلك الوقت سوف نستمع إلى حجة أهل العلم.

بعد مضي النصف الساعة شعر الجميع بالنعاس والملل لما سمعوه من أسماء لمصطلحات غريبة ونظريات علمية غير مفهومة. أما الآن فقد دقت الساعة.

منظمة الجلسة: والآن أيها الحضور الكرام، ندعو الإخوة ممثلي الأديان للتقدم إلى المنصة لاستقبال الأسئلة.

وقف بالقرب مني شخصان، الأول يبدو أنه قس الكنيسة الكاثوليكية ببدلته السوداء وصليبه الذهبي الذي يحني رقبته من ثقله، والثاني غالباً من شهود يهوى، فهو لا يطيق النظر إلى القس، وبدت ملامح الدهشة على وجوه الكثير من الحضور وهم يطيلون النظر إلي ويتهامسون بينهم وأنا مرتبكة جداً. اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني...

منظمة الجلسة: نأخذ السؤال الأول، تفضلي.

مرحباً اسمي جوزفين، لدي سؤال مكون من قسمين إن سمحتم لي، وأوجه سؤالي للسيدة صاحبة غطاء الرأس وأعتقد

أنها مسلمة، ما هو رأي دينك في المرأة، وما هي مكانة المرأة في المجتمع في دينك، وهل تعتقدين أن الإسلام وفّى النساء حقوقهم على أكمل وجه، ولماذا تضعين غطاء الرأس، ألا تشعرين بالتمييز والاضطهاد؟

سلاف: مرحباً جوزفين، شكراً لك على هذا السؤال الجميل وإن كان خارج إطار البحث والجلسة التي نحن بصددها، بخصوص رأي الإسلام في المرأة فهو واضح ونتائجه واضحة منذ 1400 عام، أي منذ قدوم نبي الإسلام محمد، فالإسلام الدين الوحيد الذي لا يُحمّل المرأة الذنب عن الخطيئة الأولى، وأنها هي من أغوت آدم ليرتكب المعصية بحق الخالق، بعكس باقي الديانات التي أصرت أنها هي من أغوته، وجزاءً لها فقد ابتليت بشقاء الحمل وهو لعنة عليها وعقوبة، ومنهم من يقول بأن العادة الشهرية وآلامها عقوبة لها وتكفيراً عن ذنبها أيضاً، وإذا عدنا إلى الحضارات الأخرى كالإغريقية مثلاً فهي نسبت الشر للمرأة واعتمدوها كأداة للجنس والمتعة، ثم الحضارة الرومانية التي كانت تسمح للرجل بقتل زوجته في حالة العصيان، وهناك أيضاً البابلية التي تنص قانوناً على محاسبة الزوجة في حال الزوج قام بجرم فهي التي تُحكم بالنيابة عن زوجها حتى وإن كان الحكم بالقتل، وحتى في الحضارة العربية كانت شائعة ظاهرة وأد الإناث، والكثير الكثير من الأمثلة لدي؛ ولكن لضيق الوقت وعدم الخروج عن الموضوع أقول لك باختصار بأن الإسلام أعز مكانة المرأة، وأصبحت حرة بعد أن كانت تباع في أسواق النخاسة، وأصبحت قادرة على التجارة وإدارة عملها الخاص بحرية دون الرجوع إلى رجل، ودعيني أعطيكِ مثالًا واضحاً لعل الفكرة العامة تصلك، فزوجة نبي الإسلام محمد اسمها خديجة كانت صاحبة أموال وتجارة، وهي كانت حرة التصرف بأملاكها وأموالها دون إذن زوجها، ولك أن تتخيلي بقية النساء إذ إن خديجة هي قدوة جميع النساء المسلمات.

أنا أحدثك عن قوانين وأمثلة منذ 14 قرناً كانت قد غيرت من مكانة ووضع المرأة، والتغيير كان قد بدأ بقدوم نبي الإسلام محمد ونشره لرسالة الإسلام، وهي للناس كافة وليس لحضارة أو شعب ما معين بل للعالمين أجمع، انظري من حولك إلى الوضع الراهن في الكثير من البلدان سواء كانت من العالم الأول أو الثاني أو الثالث فستجدين بأن بأكثر الدول تقدماً وعلماً كالولايات المتحدة، ألمانيا، هولندا والكثير من الدول ما تزال فيها أسواق نخاسة وأماكن لبيع جسد المرأة على العلن كأي منتج استهلاكي، بل ويستخدم جسد المرأة كأداة للمتعة والتسويق للإعلانات، ومن ناحية أخرى ما تزال الهند تشهد ظاهرة وأد البنات أي قتلهم وهم في المهد، ومع تطور التكنولوجيا وظهور الإيكو ارتفعت معدلات الإجهاض بنسب مخيفة خاصةً عندما تعلم الأم أو الأب في الهند بأن المولود القادم أنثى وليس ذكراً. وانظري قليلاً في التاريخ فسيظهر لك بأنه بعد عام 1870 أصبحت المرأة في الدول المتقدمة تستطيع أن تتصرف بأموالها بدون إذن زوجها ولها الحق في التملك، وانظري إلى حركات النسوية متى بدأت ولماذا بدأت، بدأت متأخرة 1300 سنة عن الإسلام، فجوابي لك نعم يا جوزفين الإسلام أعطى المرأة مكانتها وحقوقها كاملة.

منظمة الجلسة: عذراً ـ سلاف ـ على المقاطعة ولكن وقت الجلسة لا يتسع للشرح العميق، ويجب أن ننتقل للسؤال التالي كي نتيح الفرصة للجميع بطرح الأسئلة، وأمنحك دقيقتين فقط للجواب عن القسم الثاني من السؤال تفضلي.

سلاف: إنّ هذا النوع من الأسئلة يتطلب التأصيل والتسلسل بالأحداث لكي نرى

وجه الحق ولكي تصل الحقيقة كاملة، وسأختصر قدر المستطاع.

بالنسبة لغطاء الرأس فهو يسمى بالحجاب وهو مثال ورمز للعفة التي يجب ألا تفارق المرأة، وهو واجب على المرأة المسلمة كما هو اللباس الساتر، فلا حاجة لنا بأن نظهر زينتنا وجمالنا لكل رجال العالم، فنحن نكتفي بأزواجنا، أما بقية الرجال فهم غرباء عنا فلا يحق لهم أن يتمتعوا بالنظر إلى مفاتننا، وعلى العكس تماماً أنا أشعر بالثقة الكاملة في ارتدائي للحجاب، وطبعاً أشعر بالتمييز بيني وبين الكثير من النساء اللواتي يعرضن أجسادهن العارية للجميع، فالإسلام نقلنا من العام «جميع الرجال» إلى الخاص «الزوج والوالدين والأخوة وأبناءهم والأعمام والأخوال» فيما يخص الحجاب، أما عري الجسد فهو للزوج فقط وبهذا يجب أن نفخر نحن كنساء بشكل عام، أما موضوع الاضطهاد فأساس الإيمان وعماد الدين في الإسلام أنه لا إكراه فيه وهذا الشيء ورد نصاً في القرآن كتاب الله، وانظري حولك الآن فأنا المرأة الوحيدة التي تمثل الإسلام في هذه الجلسة؛ وأقف بلا خوف أو تردد بين الكثير من الرجال وأتحدث بحرية عن الدين والمرأة والحرية. هل برأيك هذا موقف يسجل لشخص مضطهد؟

بل إنه موقف واضح ومثال شامل ويعود الفضل كله للإسلام الذي منحني هذه العزة والقوة، وهذا ليس الآن في القرن الحادي والعشرين يا جوزفين؛ بل هذا حال المرأة عندنا في الإسلام منذ أكثر من 1400 عام؛ أتمنى أن أكون قد أجبت عن سؤالك.

منظمة الجلسة: السؤال التالي تفضلي.

مرحباً اسمي إيلين وسؤالي موجه للسيدة ذات غطاء الرأس أو ما أسمته حجاباً، لفت انتباهي في حديثك عن المرأة في الإسلام العديد من النقاط، فأنت لم تذكري إلا الجميل منها، وأنا عشت في مصر في التسعينيات وعاشرت قسماً كبيراً ورأيت الكثير من الظلم والاضطهاد في حق النساء يرتكب هناك ومنها الأجزاء التي تغافلت عن ذكرها، الإرث مثلاً، فالأنثى ترث نصف الذكر وفي كثير من الأحيان لا ترث شيئاً، فالمجتمع ذكوري هناك وهو المسيطر، والمسيطر هو الذي يستحوذ على الإرث، وهذا يصنف في قمة الظلم والتمييز، والنقطة الثانية والأهم في نظري هي تعدد الزوجات، أي أن الرجل يستطيع أن يتزوج أربع نساء ويتمتع بهن كيفما شاء، أما المرأة فلا، وهذا هو عين الاضطهاد والحط من مكانة المرأة - عزيزتي - واعتبارها أداة للمتعة فقط، أليس ما أتكلم عنه هو أيضاً من الإسلام الذي تتشدقين به بين الحضور، أم أن الغطاء الذي تضعينه على رأسك وتسمينه حجاباً يحجب عنك رؤية الحقائق كاملة يا عزيزتي؟ قالتها بسخرية.

ذهل الجميع وساد صمت غريب بين الحاضرين وكأنها ذكرت هيروشيما على مسامع الجميع، توقعتُ أن تقف منظمة الجلسة وتقول هذا ليس من ضمن ما نحن فيه، وبعيد كل البعد عن موضوعنا الأساسي، فنحن انتقلنا من تساؤلات عن مغزى الحياة وهل يوجد رب وهل الأديان أم العلم هو الحل لفهم العالم وتاريخ البشرية، إلى الهجوم الحي والمباشر على الإسلام ونزعة الإسلاموفوبيا التي تسود بين النساء، خاصة في موضوع المرأة والإسلام، إنها لحظة مرعبة وفي نفس الوقت لحظة شجاعة وقوة فالأدرينالين أصبح يخرج من رأسي، فظاظة السؤال وتكاتف

@ART_OF_BOOK

الموجودين لنسف الفكرة التي طرحتها في السؤال الذي قبله، والابتسامة الخبيثة التي علت وجوه زملائي المناقشين بأن القصف الذي أنزلته عليَّ يصب في طرفهم لطرح المسيحية وطوائفها بديلاً عن الإسلام في هذه الجلسة، توقعتُ أن يتذمروا بأن الجلسة ووقتها سوف يضيع عليهم وبأني أخذت انتباه الجميع بفكرة الإسلام، ولكن على العكس تماماً يبدو وكأنهم كانوا ينتظرون سقوطي بالهيروشيما لتبدو فكرتهم أفضل تماماً كما قال أبي.

وقفت وتقدمت قليلاً إلى الميكروفون، رمقت الجميع دون استثناء بابتسامة عالية وقلت في نفسي (إذاً إنها الحرب).

مرحباً عزيزتي إيلين، شكراً لك على هذه الصراحة المفرطة وعلى مشاركتنا وحي تجربتك في مصر، سوف أجيبك بشكل كامل ولكن أنوه أولاً بأن مثل هذا السؤال وهذه الاتهامات التي طرحتها أنت ظلماً وجهلاً تتطلب وقتاً للشرح، فأعتذر لمنظمة الجلسة وللحاضرين سلفاً إن طال الشرح.

هز الجميع رؤوسهم بشوق لمعرفة ما الذي سيأتي بعد هذه المقدمة.

في بداية الأمر دعيني أوضح أمراً بالغ الأهمية، نحن عندما نقول أن فلاناً من الناس لص لا ننظر إلى عرقه أو دينه بل ننظر إلى شخصه، وما فعله يعيبه هو نفسه لا يعيب عرقه ودينه، ففي جميع الأعراق والأديان يوجد الجيد والسيئ كشخص أما العرق والدين فهو شيء آخر تماماً، فأنت عندما شهدت بنفسك الكثير من الحالات المغلوطة من أولئك الأشخاص هذا لأنهم هم سيئون أو أتباع سيئون،

والإسلام كدين بريء من تصرفاتهم تماماً، ونحن هنا في هذه الجلسة نتكلم عن دين كامل وليس عن أشخاص محددين، فضعي هذه الفكرة في رأسك في نقاشنا هذا... الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر كما هو الحال مع المسيح وموسى وأتباعهما وكما هو حال العلم وأتباعه أيضاً.

أما بخصوص الإرث عزيزتي إيلين، فهو محدد في الإسلام بين وصية وإرث، فإن كان هناك وصية انتهى الأمر ولا حاجه لتوزيع الإرث بالطريقة التي طرحها الإسلام، وفي حال عدم وجود وصية هنا نلجأ إلى حدود التقسيم كما وجدت في كتاب الله، وهي مختلفة باختلاف عدد الأشخاص المستفيدين من الإرث، وفي غالب الحالات الأنثى لها أكثر أو مثل الذكر، وبهذا تتغير حصة الأنثى بتغير وضعها أو قربها من المتوفى، فالأم غير الأخت غير الزوجة غير الابنة، وفي حالة واحدة فقط يكون للذكر حصة أكبر من الأنثى، ولكنها في المجموع النهائي بتقسيمها كمجموعات هي متكافئة، وإني أرى في ذلك الكثير من العدل والحكمة من الله عز وجل، ودعيني أقول لك أنه في المجتمعات المسلمة وفي الإسلام هناك الكثير من المسؤوليات التي ترتب على عاتق الذكر فقط والأنثى معفية نهائياً منها؛ ففي تلك البلدان والمجتمعات الوالدان مثلاً هما من مسؤولية الأبناء عندما يتقدمون في العمر، فترتب على أبنائهم الذكور مسؤولية الرعاية والمصروف وكل المستلزمات؛ ومسؤولية الإنفاق على الزوجة تقع على زوجها، ومسؤولية الإنفاق على الابنة تقع على أبيها، والأخت من مسؤولية أخيها في الإنفاق إلى أن تتزوج، وهذا شيء موجود نصاً في القرآن كتاب الله، وهو فرض علينا نحن المسلمين على عكس

ما هو موجود اليوم في السويد والمجتمعات البرجوازية، فالأهل إن عُرفوا فأولادهم يستقلون عنهم في عمر الثامنة عشر، وعندما يصبح الوالدان في سن التقاعد فبيوت العجزة مأواهم، فكلٌ مسؤول عن نفسه فقط.

أما في حال جاءت القسمة بأن يأخذ الذكر ضعف الأنثى فسؤالي لك: هل تفضلين أن تأخذي قطعة من قالب الحلوى وتكون لك كاملة، ولست ملزمة بتقديم شيء منها إلى أحد ولا أحد يستطيع سؤالك عنها، أم تفضلين أن تأخذي قطعتين من القالب نفسه وتكون عليك مسؤولية الصرف والإنفاق بكلتا القطعتين بل ومن مدخراتك أيضاً، وهذا واجب فرض عين عليك؟ وما بالك حينما تكون القسمة النصف أو أكثر للأنثى ولا يرتب عليها شيء من الالتزامات، هل هذا هو ظلم وتمييز عزيزتي؟

هذا ما ينص عليه الإسلام نصاً وقانوناً، أما طريقة فهمه وتنفيذه بين الناس فهو مختلف باختلاف فهمهم له وباختلاف قوانين الدولة الحاكمة، وهذا شيء آخر لا دخل للإسلام كدين فيه، أما أولئك الذين أساؤوا فهمه وتطبيقه فتلك هي مشكلتهم الخاصة وليست مشكلة الإسلام أبداً، وعند الله يعاقبون أشد العقاب لأنهم ظلموا الناس وإخوتهم وأمهاتهم في الميراث.

أخذت نفساً عميقاً وشربت قليلاً من الماء لألتقط أنفاسي، ولمحت الحضور من حولي مدهوشين بإظهاري لهذا الدرع المقاوم للنووي الذي أطلقته إيلين بل وأدرت الدفة وأعدت توجيه الهيروشيما لها في ديارها.

وبالعودة إلى الموضوع الذي اعتبرته أكثر أهمية بالنسبة لك عزيزتي إيلين، وهو تعدد الزوجات، فإن عدت للتاريخ قبل الإسلام فكان عدد الزوجات غير محدد في كل الحضارات والثقافات والأديان، فالمسيحية مثلاً لم تحدد عدد الزوجات بل الكنيسة هي التي حددتها ووضعتها نصاً وقانوناً، وكذلك الأمر بالنسبة للفايكينج الذين عاشوا في دول اسكندنافيا ومنها السويد طبعاً، فلم يكن هناك عدد محدد من الزوجات، بل كان الرجل يعاشر من يرغب وكيفما يرغب، ولا ضير للضيف في المشاركة بمعاشرة الزوجة أو الأنثى أياً كانت، فهذا كان من حسن الضيافة عندهم، وبعدها جاءت المسيحية غير محددة العدد إلى أن جاءت قوانين الكنيسة التي نصت على الزوجة الواحدة، بينما بقدوم الإسلام منذ 1400 عام تحدد عدد الزوجات، والله أوجد هذا القانون لحل مشكلة إنسانية موجودة منذ بداية خلق البشر وإلى الآن وهي مشكلة اليتامى والأرامل، لأنه وكما تعلمون الحروب قائمة منذ الأزل والأرواح المبذولة تسعون بالمائة منها رجال، فهم من يقاتلون وهم من ينتسبون للجيش وهم أول الضحايا في كل الحروب والكوارث، ودعونا لا نذهب بعيداً في التاريخ، فمنذ مائة عام تقريباً كانت الحرب العالمية الأولى وضحاياها قدرت بعشرة ملايين جندي وعشرين مليون مدني، ولحقتها بعد ثلاثين عاماً تقريباً الحرب العالمية الثانية التي تصنف بأنها واحدة من أكثر الصراعات ملحمية في التاريخ، وذهب ضحيتها في كل من أوروبا ودول الاتحاد السوفييتي سابقاً أكثر من أربعين مليون إنسان بين مدني وعسكري من كل البلدان، فإذا كان النصف فقط يملك زوجات فقد أصبحن أرامل والأطفال أصبحوا يتامى، فمن يقوم برعايتهم وحمايتهم في هذه الأوقات الصعبة، ومن يلبي رغبات أولئك الأرامل الشابات اللواتي رحل أزواجهن

@ART OF BOOK

ضحية تلك الحروب؟ هل يجب أن يترك الأطفال ليربوا في هذه البيئة بعد الحرب ويعملوا في سن صغيرة ويتعرضوا لشتى أنواع التعذيب والقهر، ولا يذهبوا للتعلم لبناء الدولة والمجتمع بعد أن دمروا أو يتحولوا إلى مجرمين في الكبر مع ارتكاب الكثير من الأخطاء لعدم وجود شخص ناضج قادر على تقديم الحماية والدعم والتوجيه؟ ثم إنه ماذا عن أمهاتهم الأرامل المستضعفات، هل يذهبن للعمل إذ وجد، ويتركن مسؤولية تربية الأطفال للشارع العام، أم تلجأن لبيع أجسادهن لتلبية رغباتهن الجنسية وجني المال لإطعام أطفالهن اليتامى؟

نعم، من هنا جاءت فكرة التعددية في الإسلام كما ذكرت سابقاً لحل مشكلة إنسانية، فالتعدد في الإسلام وجد فقط في حالة الأرامل واليتامى، وهذا هو الشرط الوحيد للتعدد، أي إن الزوجة الثانية والثالثة والرابعة هن حصراً من الأرامل وعندهن أطفال يتامى، ولا يقوم الزواج بالإكراه بل برضى الزوجة، وأكد الله عز وجل أن يعدل بين أطفاله والأطفال اليتامى، وإن لم يستطع ولم تكن عنده الإمكانية المادية والعقلية والجسدية للزواج فقد قالها الله نصاً واضحاً بأن زوجة واحدة فقط تكفي، وهنا أريد التوضيح بأن هذه الشروط وهذا الحمل الذي وضعه الله على عاتق الذكر ليس أمراً سهلاً، وذلك بأن تجلب عائلة أخرى وأطفالًا ليسوا بأطفالك، وتصرف عليهم وتحميهم. ويحثك الله على العدل بين أطفالك وأطفال غيرك، وكل هذه المسؤولية لا تصب ـ كما تفضلت يا عزيزتي إيلين ـ في مصب الشهوة الجنسية واعتبار الأنثى أداة للمتعة والحط من قيمتها، بل على العكس إنها قمة الرقي في التعامل مع الأرامل والثكالى، وقمة الرحمة في التعامل مع الأطفال اليتامى.

PART OF BOOK

أتمنى أن أكون قد أجبت عن سؤالك وأزلت حجاب الجهل عن عقلك وألبستك حجاب المعرفة كما ألبسني الله إياه.

إنه الصمت مجدداً يصحبه نظرات الخيبة من زملائي المناقشين، لقد أفشلت مخططاتهم، والفضل كله يعود لله. وعدت إلى مجلسي وصحبت زملائي بابتسامة أعرض من تلك التي فارقتهم بها قبل جوابي، وبالنسبة لإيلين فلم أرها بين الحضور، لعلها تصببت عرقاً وذبل مكياجها وذهبت للحمام لتعدله.

تداركت منظمة الجلسة الموقف: شكراً لك ـ يا سلاف ـ على هذا الشرح المفيد، والآن بقي لنا عشر دقائق فقط على انتهاء جلستنا ونأخذ السؤال الأخير؛ وأنا التي سوف أطرحه لكي نبقى ضمن نطاق جلستنا هذه، وسؤالي هو هل أثبت العلم بأنه جدير بإزاحة الدين لإدارة مفاهيم البشر كافة، وهل مفهومه عن النشأة البشرية كان المفتاح لذلك؟ وسؤالي هنا موجه للسيدة سلاف.

وقف قس الكنيسة ليعبر عن امتعاضه فقال لمنظمة الجلسة: عذراً أيتها السيدة، لقد قلت إن الوقت المتبقي عشر دقائق وهذا هو السؤال الأخير، وها أنت تعطين الدور للسيدة نفسها التي أجابت عن كل الأسئلة التي طرحت سابقاً، وأهدرت الوقت كله في تجميل الإرهاب والعنف والتمييز والاضطهاد، فأنا الآن أستطيع أن أجلب من كتابها نفسه الذي تدعي أنه من عند الله ربها الكثير من الأمثلة التي تدعو وتحث على العنف والكراهية والقتل.

منظمة الجلسة: عذراً أيها القس، نحن لسنا بصدد النقاش بين الأديان، فغالبية

@ART_OF_BOOK

الحاضرين اليوم ليسوا من معتنقي الديانات، وجلبك للأمثلة من كتبكم التي تؤمنون بها لا يعني لنا شيئاً؛ لأننا بالأساس لسنا مؤمنين بأي من هذه الكتب.

تنحنح فطين شهود يهوه قائلاً: إذاً فعلينا بتنظيم فعالية تشمل النقاش بين الأديان فقط، أي مقارنة بين الإسلام والمسيحية واليهودية لبيان الأفضل لقيادة البشرية لحياة أفضل، ونوضح التناقضات بين كتب الإنجيل والقرآن والعهد القديم ومن منها أجدر بالاتباع.

منظمة الجلسة: فكرة ممتازة وعظيمة، دعونا نقوم بها في الشهر القادم لأن جدولنا ممتلئ في الأسابيع القادمة بنقاط أهم كثيراً من مناوشات الأديان بين بعضها.

أما الآن فاسمحوا للسيدة سلاف بالجواب عن السؤال المطروح؛ لأننا في العشر سنوات السابقة سمعنا كل الحجج التي لديكم وأخذتم الوقت الكافي لإثبات وجهة نظركم، أما اليوم فلدينا وجهة نظر مختلفة وثابتة، ولأكون عادلة فالأجوبة التي قدمتها أكثر جدارة من أجوبتكم التي صدعتم رؤوسنا بها في العشر سنوات التي مضت، هز جميع الحاضرين رؤوسهم بالثناء على قول منظمة الجلسة: تفضلي يا سلاف.

وقفت أمام الحضور مرة أخرى ولكن هذه المرة حاولت فيها أن أكتم غيظي أكثر.

ـ أيها الحضور الكرام، شكراً لكم وأقدر دعمكم للاستماع إلى الحقيقة، فهذه طبيعة النفس البشرية الطيبة، أما النفس الخبيثة فهي فقط تدعي المثالية ولها

ART OF BOOK
©ART OF BOOK

عقلية متحجرة متحيزة لا تقبل الحقائق ولو كانت على طبق من ذهب، وبخصوص ما طرحه زميلي فأنا على أتم الاستعداد لتفنيد كتابهم المقدس في الشهر القادم، وأسأل الله أن يكون معهم لأن ما سأطرحه سيكون موجعاً، فيكفيني القول بأنهم يتبعون كتباً هم وحدهم من حرفوها وعدلوا عليها بما يتناسب مع أذواقهم وأهوائهم، ولذلك يوجد الكثير من التناقضات في ظل الثورة العلمية التي لا تتفق معهم أبداً، بل على العكس تدحض ما تقوله أناجيلهم المحرفة.

أعود إلى جواب السؤال المطروح الآن، هل أثبت العلم بأنه قادر على إزاحة الدين لإدارة مفاهيم البشرية؟ أقول هنا إن العلم شيء والدين شيء آخر تماماً، فالدين هو كتاب التعليمات من الخالق، فالحياة لا تقوم بالشكل الصحيح ولا تستمر إلا باتباع تعليمات خالق هذا الكون وما يحتويه كافة، وإذا أردت القول بأن هناك الكثير من الدول لا تتبع الدين كقاعدة أساسية وهم الآن من أوائل الدول في العلم والثقافة والأدب، فأقول لك هذا صحيح ولكن هل نظرت إلى الأضرار الجانبية وتأثيراتها على المجتمع، على سبيل المثال الولايات المتحدة تملك أكبر معدل جريمة في العالم، وهي نفسها التي تدعي الحرية والعدل والمساواة، ثم إن لديها أكبر معدل اغتصاب للفتيات في العالم نتيجة لعدم تطبيقهم قوانين صارمة تخص المجرمين، وفي غالبية البلدان المتقدمة ساهم إلغاء الزواج والإيمان بالمساكنة والمعاشرة بالعودة بنا للتاريخ القديم، حيث كانت المرأة سلعة تباع وتشترى وتنام في اليوم الواحد مع أربعة ولا مانع لها، وبعدها تنجب ولا تعلم من والد الطفل، ويربى هذا الطفل في هذا المجتمع المعوق ولا يعلم من هو أو من والداه.

@ART_OF_BOOK

فيختفي التماسك الأسري وتزول كل الروابط الأسرية، ولدي الكثير من الأمثلة في المجتمعات كافة، ولكن لضيق الوقت دعيني أقول لك بأن الإسلام إلى الآن هو الدين الوحيد الذي يعطي الأجوبة كاملة، ويعطي الحلول الفعالة لكيفية فهم وإدارة المجتمعات ككل، وله النظرة العامة والشاملة، والقرآن كتاب الله هو الكتاب الوحيد المتماشي مع العلم دون هامش خطأ أبداً، بل على العكس ما يقدم الآن من علم كان قد ذكر منذ 1400 عام في كتاب الله، أي قبل اختراع الإيكو والأجهزة المتطورة الكاشفة لطريقة الحمل وتكون الجنين، أما القرآن فسردها بوضوح ودقة، وكذلك قبل اكتشاف التلسكوب ورؤية النجوم والكواكب وقبل اكتشاف كروية الأرض وقبل اكتشاف الانفجار العظيم، كلها قالها القرآن منذ 14 قرناً، وما جاء العلم إلا بالكيفية أي بالمادية، أما الدين فجاء كاملاً مادياً وروحياً، أما بالنسبة لمفهوم النشأة فقدمها القرآن بكل وضوح ولا تتعارض ولا بجزيئة نيرون صغيرة مع العلم، ولكن العلم بحث في الكيفية عن طريق الفيزياء والعلوم الحيوية والرياضيات، أما الدين والقرآن فأعطيانا النتائج كاملة وجاهزة لا تحتاج إلى أي معادلة للقياس؛ فوجود الشمس وضوئها ودوران الأرض وبدء النشأة الإنسانية هو شيء مادي موجود قبل الثورة العلمية، ودعيني أختم جوابي بالقول بأن العلم لا يستطيع أبداً أن يلغي الدين، بينما الدين استطاع الصمود من دون العلم لآلاف السنين، فالدين هو الأساس والعلم هو الاستثناء، ويجب أن يُسخر العلم لفهم الدين بالطريقة الصحيحة لتفادي الآثار الجانبية والفهم الخاطئ للدين كما يروج له الكثير من علماء الدين والسياسيين في الميديا.

PART OF BOOK

تمنيت أن يكون لدي وقت أكثر لأضيف الكثير من الحلول التي تعاني منها الكثير من المجتمعات، وكان الإسلام والقرآن قد طرحا الحلول بغاية البساطة، ولكن أكتفي بتذكيركم بجوابي على العزيزة إيلين بطرح التعدد لحل مشكلة الملايين من النساء والأطفال والبيوت المهدمة وبناء مجتمع متين وقوي لنهضة البلد، وهو شيء لم يستطع العلم تقديم حل له، ومع ذلك تفضلون العلم كل الوقت والملايين أمامنا تعاني.

وقف أحد منظمي الجلسة معترضاً ويبدو أنه من الحركة المسيحية الصهيونية وقال: إن كل ما قلته سابقاً يمكن أن يسمع وأن يجادل فيه، ولكن تهديدك للقس بهدم الديانات الأخرى غير الإسلام ومن نصوص كتبها المقدسة أمر لا يقبل، فأنت بهذا التصريح توجب عليك أن تأتي على ذكر بعض الأمثلة على حجتك الآن وعلى العلن، وأنا بصفتي أحد المنظمين المهتمين بالحوار والحجة المنطقيين لن أسمح بمرور تهديداتك من دون فهم المبرر.

ارتفعت أصوات الحضور بتمتمات موافقة وأخرى معترضة بذات الوقت واتحد بهذه اللحظة القس وزميله من شهود يهوى على أنهما متفقان مع الرجل الذي دعا لسماع الحجة ظانين أنهم سيضيقون الحصار على سلاف لكيلا تعود بمثل هذه الأفكار السامة مرة أخرى، ومن يدري لعلها لا تعود إلى مثل هذه الجلسات في المستقبل مرة أخرى.

نادت منظمة الجلسة على سلاف لتكلمها على انفراد وقالت: أنت لست مضطرة للرد على هذا المتحذلق، فهو يحب إثارة الشغب في كل جلسة نقيمها،

ووقت الجلسة المحدد قد انتهى، نستطيع ترتيب الأمر في جلسات أخرى لاحقاً.

ردت سلاف بحزم: إن سمحت لي وتكرمت عليَّ بعشر دقائق إضافية أعدك بأنك لن تحتاجي لجلسة أخرى من هذا النوع، بل سأضمن لك غياب هذا المتحذلق عن كل الجلسات القادمة التي سوف أشارك فيها.

ردت منظمة الجلسة: لك ذلك يا سلاف. وتقدمت إلى المنصة لتعلن للحضور بأن وقت الجلسة سيمدد إن لم يكن هناك مانع عند أحد، وستتقدم سلاف بالرد على زميلهم، فهز الجميع رأسه بشغف فمنهم من كان يرقب السقوط بصمت ومنهم من كان يتوق إلى الحقيقة.

بدأت سلاف.

ـ بداية أقول إن التهديد يختلف بمفهومه عن إعطاء المعلومات، وما أعلنت عنه سابقاً هو معلومات عن كيف سيكون شكل جلسات مقارنة الكتب المقدسة إن حصلت، ولكن دعونا نكسب الوقت الآن بتذكير القس وزميله والإخوة المشاركين الذين يؤمنون بالعهد القديم والأناجيل الجديدة كلها على اختلافها ببعض النصوص المأخوذة من عدة أسفار مختلفة من الكتب المسيحية اليهودية عن المرأة؛ لكي نقارنها بما عرضته سابقاً عن وضع المرأة في الإسلام، ودعوني أبدأ من البداية أي بداية الخلق عندما دارت قصة حواء مع الحية كما يسردها لنا سفر التكوين، وبعد أن أغوتها الحية وأقنعتها بأكل ثمار الشجرة للحصول على الخلود والمعرفة، وبعدها أعطت حواء لزوجها الثمرة أيضاً وعليها وقع اللوم بأنها هي أصل الخطيئة الأولى،

PART OF BOOK

ثم يأتي سفر التكوين الثالث في الآية 16 بالعقاب ليقول «وقال للمرأة: تكثيراً أُكثّرُ أتعابَ حبلكِ، بالوجع تلدين أولاداً وإلى رَجُلكِ يكون اشتياقك وهو يسودُ عليك». فهو لم يكتف بالعقاب هنا بل وضع الرجل في مكان السيادة، ثم لدينا في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح الحادي عشر الآية رقم 3 تقول «ولكن أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح، وأما رأس المرأة فهو الرجل، ورأس المسيح هو الله». وهنا نفهم ويتأكد مفهوم أن الرجل هو السيد والمرأة هي التابع.

ومن هنا أنتقل إلى معاناة المرأة واضطهادها وفي نفس الإصحاح الذي ذكرته يعود في الآية الخامسة إلى الآية العاشرة ليقول:

«وأما كل امرأة تصلي أو تتنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها لأنها والمحلوقة شيء واحد بعينه إذ المرأة إن كانت لا تتغطى فليقص شعرها وإن كان قبيحاً بالمرأة أن تقص أو تحلق فلتتغط فإن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده وأما المرأة فهي مجد الرجل لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة خلقت من أجل الرجل لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة».

ثم يعود علينا في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس الرابعة عشرة في الآية 34 والآية 35 ليقوض عليها حتى في العلم والسؤال ليقول «لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

تتكلم في كنيسة».

ثم ننتقل سريعاً إلى سفر اللاويين الثاني عشر الآية 1 إلى الآية 5 التي تصرح جهراً بانتقاص المولودة الأنثى بتميزها عن المولود الذكر فتقول: «وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بني إسرائيل قائلاً: إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام كما في أيام طمث علتها تكون نجسة، وفي اليوم الثامن يختتن لحم غرلته ثم تقيم ثلاثاً وثلاثين يوماً في دم تطهيرها كل شيء مقدس لا تمس، وإلى المقدس لا تجيء حتى تكمل أيام تطهيرها. وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما في طمثها ثم تقيم ستة وستين يوماً في دم تطهيرها». أي في حال وضعت الأم مولودة أنثى تتضاعف مدة نجاستها.

أما فيما يخص موضوع الإرث فاسمحوا لي بأن أذكركم بالقصة الشهيرة في الكتاب المقدس، قصة بنات صلفحادَ التي وردت في سفر العدد السابع والعشرين الآية 1 إلى الآية 11:

«فتقدمت بناتُ صلفحادَ بن حافر بن جلعاد بن ماكير بن منسى، من عشائر منسى بن يوسف وهذه أسماء بناته: محلةُ ونوعةُ وحجلةُ وملكةُ وترصةُ. ووقفن أمام موسى وألعازار الكاهن وأمام الرؤساء وكل الجماعة عند باب خيمة الاجتماع قائلات: أبونا مات في البرية ولم يكن في القوم الذين اجتمعوا على الرب في جماعة قورح، بل بخطيئته مات ولم يكن له بنون. لماذا يحذف اسم أبينا من بين عشيرته لأنه ليس له ابن؟ أعطنا ملكاً بين إخوة أبينا. فقدم موسى دعواهن أمام الرب. فكلم الرب موسى قائلاً: بحق تكلمت بنات صلفحاد فتعطيهن ملك

@ART OF_BOOK

نصيب بين إخوة أبيهن وتنقل نصيب أبيهن إليهن. وتُكلمُ بني إسرائيل قائلاً: أيما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه إلى ابنته. وإن لم يكن له ابنة، فتعطوا ملكه لإخوته».

أي أنه إن مات الرجل وله ابن ذكر فإليه يعود الميراث كاملاً، وفي حال لم يكن هناك ابن ذكر فتعود الورثة آنذاك للأنثى، أليس ما أقول واقتبس منه صحيح أيها الأب الفاضل؟ وكم أتمنى أن تكون قد سمعت إجابتي عندما سألت عن اضطهاد الإسلام للمرأة في الميراث أنت والحضور الكرام،

وإلى هنا فأنا لم أنته بعد فلدي قصة أخيرة أسردها عليكم وهي على ارتباط وثيق لما قلته سابقاً عن طرح الإسلام لفكرة التعددية، ووصفتها بأنها قمة الرحمة والعدل بالأرامل واليتامى بل وتساهم في حل المعضلة الأزلية في المجتمعات، ففي سفر التثنية الخامس والعشرين الآية 5 إلى الآية 10 تقول:

«إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصر امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي. أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج. والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل. وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول: قد أبى أخو زوجي أن يقيم لأخيه اسماً في إسرائيل. لم يشأ أن يقوم لي بواجب أخي الزوج. فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه فإن أصر وقال لا أرضى أن أتخذها. تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرخ وتقول: هكذا يُفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه.

@ART OF_BOOK

فيدعى اسمه في إسرائيل (بيتَ مخلوعِ النعلِ)».

ثم إذا ذهبنا مباشرةً إلى سفر اللاويين الحادي والعشرين كي نفهم أكثر كيف تتم معاملة الأرملة والمطلقة ومع من تُشمل، ولنفهم حالتهن الاجتماعية فنرى في الآية الرابعة عشر التي تتكلم عن الكهنة إن أرادوا الزواج فيجب أن تكون المرأة عذراء فتقول الآية: «أما الأرملة والمطلقة والمدنسة والزانية فمن هؤلاء لا يأخذ، بل يتخذ عذراء من قومه امرأة». ودعوني أكمل هنا بعض العقوبات المفروضة على الأنثى، ففي نفس السفر ولكن في الآية التاسعة تحرق الزانية ابنة الكاهن بالنار فتقول: «وإذا تدنست ابنة كاهن بالزنى فقد دنست أباها. بالنار تحرق». ثم في مواضع أخرى الزانية تجلد حتى الموت، وبعدها إن عدنا إلى سفر التثنية الخامس والعشرين الآية 11 و12 : «إذا تخاصم رجلان رجل وأخوه وتقدمت امرأة أحدهما لكي تخلص رجلها من يد ضاربه ومدت يدها وأمسكت بعورته. فاقطع يدها، ولا تشفق عينك».

والآن أيها الحضور الكريم، بعد حلق الشعر وقطع اليد والجلد حتى الموت والحرق وشمل المطلقات والأرامل مع الزانيات والحرمان من الميراث في حال وجود ذكر، والاتهام المباشر للمرأة بأنها أصل الخطيئة ونزول عقوبة الولادة عليها والتمييز الواضح بين المولود الذكر والأنثى في حد النجاسة وإخضاع المرأة لإمرة الرجل وسيادته عليها، أعيد عليكم السؤال الذي طرح علي: هل تعتقدون أن الإسلام والقرآن أعطى المرأة حقوقها كاملة ورفع شأنها؟ وهل تعتقدون أن تعاليم الإسلام وكتابه القرآن هو المرجع الأمثل لتقديم الحلول للبشرية للعيش بسلم وحب

وحرية وعدالة بين الجنسين وحلّ المعضلات الاجتماعية؟ أقول لكم نعم بل ألف نعم. شكراً لحسن استماعكم.

انتهت الجلسة

***

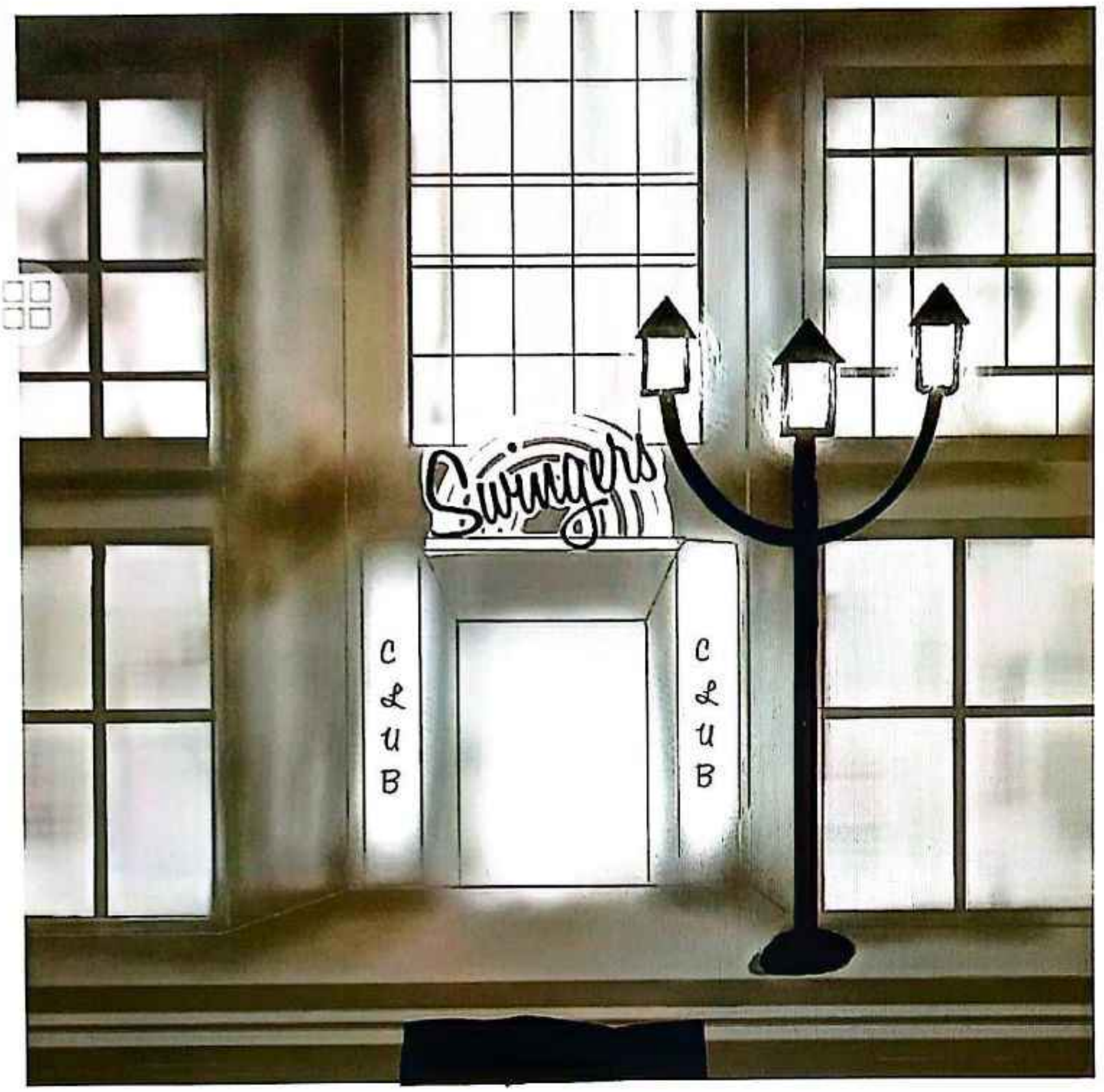
Swingers
CLUB
CLUB

سوينغرس

اتصلت على أختي لأطمئن عليها ولأعايد ابنتها في عيدها الذي يصادف في العشرين من شهر شباط. كانت مكالمة طويلة بعض الشيء لإصرار أختي بأن آتي لزيارتهم في نفس الشهر، وذكرتني بأنها سنة كبيسة وقالت إنه آن الأوان للاحتفال بعيد ميلادي على الطريقة الصحيحة كما وصفتها. ودار جدال عقيم بيننا بأنه يوم لا أريد أن أتذكر منه شيئاً، فهو مليء بالذكريات الموجعة، فتأخذ ابنة أختي وابنها الهاتف ويحسما الأمر بأنني سوف آتي إليهم وأنهم سوف يحضرون قالباً من الحلوى جميلاً جداً، ويجب عليَّ ألّا أردهم خائبين، خصوصاً بعد أن أرخت تلك الشقية الصغيرة عيونها بحزن لكي أوافق، وفعلاً لم أستطع رفض محبتهم وأشواقهم المطبقة. وقلت لهم إنني سوف أرى إن كان هناك حجز في الموعد المناسب، وأغلقت المكالمة وبدأت البحث عن تذكرة على الخطوط البحرية الإسكندنافية. فأنا بحاجة ماسة إلى رحلة طويلة في منتصف البحر بعيداً عن كل مسببات الألم. ولكن مع الأسف التذكرة الوحيدة المتبقية كانت في يوم ميلادي اليوم المشؤوم. وقلت في نفسي ولم لا، سوف يكون جميلاً أن أحتفل على متن سفينة كبيرة في منتصف البحر، لا شيء جديد فالغرابة بهذا اليوم هي من صفاته الأساسية. حجزت التذكرة وراسلت أختي بأني سوف أتأخر بضع ساعات عن اليوم الموعود فسأصل في فجر الأول من آذار، لأن الرحلة تنطلق عند الغروب تقريباً في يوم 29 شباط ومدتها اثنتا عشرة ساعة وردت أختي بأنه لا مشكلة، فمن الجميل الاحتفال صباحاً أيضاً وأرفقتها بوجه يغمز بشقاء.

الآن يجب أن أذهب للعمل لكي أبلغ المسؤول بأني سوف أسافر وبحاجة إلى

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

إجازة لمدة أسبوع فقط، وفعلاً طرقت الباب عليه فقال: تفضل أهلاً يا صديقي نذير، قل لي كيف أستطيع مساعدتك؟

شرحت له أسبابي بأني أشعر بالضيق وكل ما يجول في خاطري وبأنني حجزت تذكرة واستعملت فيها الهدية التي أعطاني إياها من قبل.

أردف بالقول: أنا سعيد جداً من أجلك يا نذير، أنت تستحق ذلك ولكن إن شئت فأنا أستطيع أن أؤمن لك عطلة موفقة، فأنا مشرف في مجموعة نوادي السوبنغرس في السويد، فإن شئت يمكنك أن تأتي معي مرة لتجرب وتنسى همو الحياة.

ظهرت على وجهي ملامح الاستغراب قلت له: سوبنغرس!

أعتقد أني سمعت بهكذا نادي من قبل، ذكرني ما اختصاصه؟

اقرب مني وقال هامساً: إنه نادي تبادل العشيقات أو الزوجات أو الصديقات. يجب أن تأتي معي يوماً ما يا نذير، فأنا أستطيع أن أؤمن لك تذكرة دخول من دون صديقة، فلدي نفوذ قوي هناك فأنا وزوجتي من المؤسسين. والآن يبلغ عدد المنتسبين إلى النادي حوالي 400 ألف في كل أنحاء السويد ويركزون في المدن الكبرى مثل ستوكهولهم ويوتوبوري ومالمو. فنحن نذهب في عطلة كل أسبوع إلى أحد المراكز الكبيرة لكي نرى وجوهاً جديدة ونستمتع في التجربة أكثر.

صدمت، بل ارتعبت من همسه الذي يمزق غشاء أذني قرفاً. وغت انتباهي رقم المنتسبين الخطير بالنسبة لعشرة ملايين سويدي. فنحن نتحدث عن أربعة بالمئة

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

من السكان وهؤلاء أعضاء أساسيون يدفعون رسوماً شهرية، عداك عن الضيوف والذين يريدون التجربة والأصدقاء المدعوين من الخارج وتطول القائمة، فلنقل جدلًا أن النسبة مؤهلة للارتفاع للثمانية أو العشرة بالمئة حتى... يا إلهي، إن التفكير بهذه النسبة مرعب للغاية! استغرقت بالتفكير وقلت له بهدوء: وماذا تتضمن هكذا تجربة؟

فرد بحماس بأنه ما إن يتم تسجيل الأسماء عند الدخول وتعليق الأسماء على الثياب التي نلبسها حتى تبدأ الموسيقى الصاخبة والكحول مجاني تماماً، لذلك ندفع رسوماً شهرية وبعدها يتم الاختيار، فإن وقعت عينك أنت أو صديقتك التي ترافقك على زوجين مناسبين لتنفيذ ما يدور في ذهنيكما من خيال وأفكار جنسية تريدان تطبيقها في هذا الأسبوع فاذهبا إلى منظم الحفلة مع إظهار اهتمامكما وذكر اسم الزوجين، وعلى ذلك خلال السهرة يتم التواصل معهما بأن الزوجين الفلانيين يريدان التبادل، أي أني أنا أريد أن أسهر مع زوجة أو صديقة الرجل الآخر، وبالتالي هو يأخذ زوجتي أو صديقتي التي ترافقني، وعليها يتم التبادل وحجز الغرف في أحد أضخم فندق عن طريق منظم الحفل؛ لأننا نحصل على خصم خمسين في المئة على غرف الأوتيلات ذات الخمسة نجوم، وإن أردت فتستطيع حجز سويت واحد للجميع وتصبح المجامعة جماعية ومتبادلة، وتستطيع أيضاً الاشتراك في مجموعات ينظمونها في غرف كبيرة تتسع إلى عشرة أزواج في آن واحد، بالمختصر يا صديقي، تستطيع اختيار ما شئت ومن شئت والعدد مفتوح وكله يتم بالتراضي وبالمجان، وفي اليوم التالي نتناول الفطور وتعود زوجتي أو مرافقتي لي وتعود مرافقة الزوج الآخر له، أي كل شيء يعود إلى مكانه ونعود إلى المنزل وينتهي كل شيء

ART OF BOOK
©ART OF BOOK

بعد أن نكون قد أمضينا يوماً من الأحلام الجامحة، ففيه تستطيع فعل ما تريد وكيفما تريد، تتجرد به من كل القيود وتفرغ كل الطاقة السلبية التي تجمعت خلال الأسبوع لتبدأ بأسبوع جديد وكأن شيئاً لم يكن، إنها تجربة رائعة ومفيدة للتخلص من الاكتئاب يا نذير، وأنصحك بها وإن ذهبت معي فلن تندم فليس فقط الكحول والنساء والرجال بالمجان، بل أيضاً الأبيض الثلجي مجاني تماماً (يقصد الكوكائين). وصحبها بغمزة وابتسامة شيطانية برزت أنيابه فيها.

شعرت بضيق في صدري بل إن فمي بقي مفتوحاً مشدوهاً لما سمعت وعيناي غارتا في داخلي حتى أني أكاد لا أرى شيئاً. أين أنا وماذا أسمع هل هذا حقيقي فعلاً! أشعر أني في جهنم الصغرى بل إنهم أبالسة حقيقيون، إنهم يمارسون كل الرغبات والشهوات الحيوانية بكل الطرق الغريبة الشاذة المجردة من المعايير الإنسانية والأخلاقية، بل إنهم بهذه التجمعات يحضرون أنفسهم إلى جهنم الكبرى التي يحدثنا الله عنها في كل الكتب والأعراف الإنسانية. عجز لساني عن الوصف حقيقةً وعجز عقلي عن تخيل الأحداث، ولكن كل ما دار في ذهني أن جهنم بحاجة إلى الكثير من الحطب وهم وقودها ولكنهم لا يشعرون. أردت أن أخفف من غرابة الموقف وأقول له بأني أشكره على دعوته وأذهب بعيداً وأمضي في رحلتي، ولكن من شدة خوفي من هول المنظر الذي تخيلته تلعثمي لم يسعفني، فغادرت مسرعاً دون أن أنبس بكلمة، وأخذت كل أغراضي من خزانتي وتركت ملاحظةً بخط اليد معلناً فيها استقالتي وصحبتها بتوقيعي، وقلت في نفسي: اللهم، إني لست منهم، اللهم، إني بريء من كل هذه الآثام، اللهم،

ART_OF_BOOK
@ART OF_BOOK

تقبلني مع عبادك المؤمنين. ومضيت في طريقي.

***

فالانتاين

يوم أحمر بكل تفاصيله ليس فقط في السويد بل بكل أرجاء المعمورة، فلقد أجمع الجميع أن 14 شباط هو يوم الحب، وعليه يرتب شراء القلوب والهدايا والورود الحمراء، وحجوزات الفنادق والمطاعم ودور السينما ممتلئة، يوم تطغى عليه الرومانسية والموسيقى الدافئة، وترفع سقوف الآمال والتوقعات لجميع الفتيات بأن يتقدم فتى الأحلام بطلب الزواج في مثل هذا اليوم، أو يتقدم أحد المعجبين ولو بوردة حمراء معلناً الحب، وليسجل هذا اليوم في سجلات الذاكرة كمصادفة لطيفة على أنه تقدم لي في عيد الحب أو قال لي أحبك للمرة الأولى في عيد الحب، كم هو لطيف! وفي نفس الوقت هو يوم مخيب لآمال للكثير من الذين لا يؤمنون بالحب كما عرّفه البشر على أنه وردة حمراء وعشاء فاخر أو نزهة في الحديقة، ومشاهدة التايتانك وعناق وقبلة ثم عند أول منعطف أو مطب سطحي في الحياة ينقلب الحب إلى هجر ونسيان، وأضف إلى القائمة أولئك المتعطشين لرفع حصيلة علاقاتهم من باب كثرة العدد والتفاخر بالخداع والخيانة على أنه يتحدث مع ثلاث في آن واحد، إنه ذكي وزير نساء وهذا مدح بين فئة الشباب، بل وتجعل منه طاووس الحي أيضاً، وكذلك الأمر للأنثى التي في الصباح عندها موعد مع شخص، وفي المساء مع شخص آخر، وهاتفها لا يمل من كثرة رسائل المعجبين والطامعين للخروج في موعد، والله وحده يعلم إلى ماذا يؤول ذلك الموعد، ومع ذلك هي بين صديقاتها المرأة القوية التي تسعى لتأمين مستقبل قوي ومتين وممتلئ مادياً، ففي نهاية المطاف الرومانسية والحب وكل هذا الكلام الفارغ لا يسدد فواتير الطعام ولا يشري منزلًا أو سيارة حديثة الطراز، ولا يؤمن مصاريف زيارة صالونات التجميل ولا عطلة صيفية إلى جزر الكاريبي، لذلك يتوجب

عليها الاختيار بعناية، وكلمة الاختيار هنا تدل على الكثرة والعدد.

بالنسبة لي لم أؤمن يوماً لا بهذا ولا ذاك، فالحب بالنسبة لي هو اهتمام حقيقي وملموس لا كلمات فارغة، وهو تصرفات ومواقف لا هروب وخداع.

قرع جرس المنزل.

ـ أهلاً يا هويدا، كيف حالك؟ تفضلي.

هويدا: اشتقت إليك يا سلاف، فلم أرك منذ أكثر من شهر تقريباً، أحضرت لك وروداً حمراء وشوكولا لتخفف عنك جفافك العاطفي حبيبتي (قالتها ضاحكة)، أسألك بالله ألست نادمة على أنك رفضت الزواج من الدكتور عماد الذي تقدم لك من سنتين وهو يملك منزلًا جميلاً في القرية وطبيب ناجح؟ فلقد سمعت من زوجته أنه اشترى لها سيارة حمراء جميلة في عيد الحب، وسوف يسافران بها إلى استوكهولم لتمضية ذلك اليوم هناك. كنت أخذت سعادتها الآن بدلًا من مناوشاتك المنهكة مع كل من تقابلين، ألم تتعبي من الوحدة والجدالات العقيمة؟ ألا تشعرين ببرودة فراشك في مثل هذا العمر؟

سلاف: الله عليك يا هويدا، لا تفوتك فائتة في هذه القرية (ضحكت كثيراً). حماتك تحبك كثيراً، أنا على وشك أن أشرب القهوة وستصبح أفضل الآن مع الشوكولا التي أحضرتها، وشكراً لك على الورود الجميلة سأضعها مع الورود التي جلبها لي أبي في الصباح الباكر ليذكرني بأني حبه الحقيقي والوحيد.

سأكون صريحة معك ـ يا هويدا ـ بخصوص سؤالك، أنا سعيدة جداً لأنني

رفضت عرض الزواج من عماد مع أنه ناجح وله سمعة طيبة بين الناس، ولكننا لم نكن مناسبين لبعض، فمجالات حياته واهتماماته مختلفة كلياً عني، فهو يهتم بالمظاهر والماديات ويحتاج إلى امرأة تصفق له على إنجازاته في كل الأوقات، وتكون ربة منزل ومربية للأولاد فقط، فشخصيته لا تتقبل الاقتران بامرأة لها أسلوبها الخاص في الحياة، ونجاحها سوف يطغى على لمعان شهادة الطب التي يملكها وبالتالي يختفي بريق الأنا المتعاظمة لديه. ومن الطبيعي أن أشعر بالوحدة وبفراشي البارد كل ليلة، ولكن أعلم وأؤمن بأن القادم أفضل وأن الله سوف يسخر لي من يؤمن بمنظوري للحياة. والآن دعينا من الحديث عني وقولي لي ما هو حالكم مع السوسيال؟ وهل توصلتم إلى حل مناسب؟

هويدا: في الحقيقة إن سر زيارتي لك اليوم ـ يا سلاف ـ لأخبرك بأننا سوف نغادر السويد بلا رجعة أو على الأقل ليبلغ وائل الثامنة عشرة. فبعد أن تم عزل وائل في صف خاص في المدرسة زاد اضطرابه وأصبح حزيناً وهادئاً كل الوقت، وبالتالي زادت زيارات السوسيال والممرضة لنا في بيتنا، مما صعب الأمر على زوجي وأصبحنا نشعر بأننا محاصرون ولم نعد نشعر بالخصوصية، فهم يتدخلون في أي شيء ويفرضون قوانينهم وأسلوب حياتهم علينا في كل شيء أيضاً، بالتالي توصلت وزوجي إلى الذهاب إلى تركيا والبدء من هناك، فهي بلد آمنة اليوم ولهم نفس عاداتنا وتقاليدنا، ولنا فيها الكثير من الأقرباء وهم على أتم الاستعداد لمساعدتنا للحصول على حياة كريمة.

سلاف: لا حول ولا قوة إلا بالله، يحزنني القول بأنه خيار مناسب لكم يا

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

هويدا، لأنني تحدثت مع المسؤولة عن وائل في المدرسة ويبدو أنهم مصرّون على أن يلقى معاملة خاصة، واستشففت من حديثها أنهم يلقون باللوم عليك وعلى زوجك، فالطفل يعيش بتوجيهات وأسلوب حياة مختلفاً كلياً بين المنزل والمدرسة مما أثر في نفسيته ووضعكم في هذا الحالة، ويحزنني أكثر طريقة فرض السلطة علينا، نحن الأجانب المهاجرون من بلد ساد فيها الاستبداد والظلم والحرب لنقع في أحضان هذه البلد التي تمارس الظلم والاستبداد بطريقة أخرى، بل بأشد الطرق أذى للروح البشرية، إنهم يحاربوننا في ديننا وفي أبنائنا لكن الله يعلم أننا المنتصرود في النهاية. لا عليك يا هويدا، إنكم ـ إن شاء الله ـ سوف تشعرون بالطمأنينة والأمان هناك، ولكن سوف أفتقد ورودك والشوكولا اللذيذة وطقوس النميمة التي عهدناها في السنوات العشر السابقة. (قلتها ضاحكةً باكيةً).

هويدا باكيةً: فليعلم الله ـ يا سلاف ـ أني أحبك وسوف أفتقدك وأفتقد حديث الناس عنك في كل مكان، وكيف أنك تبهرينهم بحجتك القوية وبعدم الرضوخ لتصنيفاتهم واضطهادهم ونظرتهم الدونية للشعوب المسلمة. وداعاً يا سلاف.

***

تناولت ثلاثاً من أقراص مسكن الألم بعد وداعي لهويدا، وقررت بعدها بأنني بحاجة إلى عطلة، نعم عطلة طويلة بعيداً عن صداع الرأس هذا، فقد بدأت أشعر بالتعب والإنهاك، ضغوطات مدير المدرسة والجدل العقيم والحوارات الدائمة عن نفس المواضيع في كل مكان، والصراع المستمر بين الميديا والحقائق ومرض أبي شعر بالحزن على أبي فمنذ بدء تلقيه جلسات العلاج للتخلص من هذا الورم

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

لغريب وهو يكابر على نفسه ويدعي بأنه القوي الذي لا ينهار أمام الصعاب، ولكن ملامح التعب تغلبه فهو في غالب أوقاته نائمٌ قلقٌ مما ستؤول إليه الأمور، خاصةً بعد أن سمعته يتحدث بالهاتف مع عمتي في ألمانيا ويقول لها بأن العلاج لا يؤتي ثمرته، بل إن حالته تزداد سوءاً، وأضاف لعمتي إن كانت تستطيع العثور لي على شاب محترم صاحب عقل ودين في منطقتهم، وطرح الفكرة عليّ وبهذا أنتقل للعيش بالقرب من عمتي وأقربائنا، فهو خائف عليَّ في حال تدهورت الأمور ولا يريد أن أبقى وحيدة بلا عائلة ولا سند في هذه البلد الغريبة.

سلاف: مساء الخير يا أبي، كيف حالك اليوم؟

والد سلاف: الحمد لله ـ يا ابنتي ـ بأفضل حال، رأيت وروداً حمراء وشوكولا في الصالة هل من أخبار سعيدة تشاركيني إياها يا سلاف؟

سلاف (ضحكت كثيراً): إنها من صديقة عزيزة جاءت لتودعني ولا شيء مما يدور في ذهنك يا أبي، وأنت تعلم في حال حدوث هكذا أمر فستكون أول العارفين، ولكن أريدك أن تتجهز يا أبي، فلقد حجزت تذكرتين لي ولك في نهاية هذا الشهر للذهاب في عطلة إلى عمتي في ألمانيا، فأنا أعلم أنك تشتاق لها ولم تزرها منذ خمس سنوات.

والد سلاف: خبر جميل، كنت أفكر في نفس الفكرة، فكلنا يحتاج إلى نزهة لرفع المعنويات وتفريغ الشحنات السلبية التي رافقتنا طوال المدة الماضية، ولكن ماذا عن مواعيد دوامك في المدرسة، وعن موعد جلستي المحدد مع الطبيب في

@ART_OF_BOOK

نهاية الشهر؟

سلاف: لا تقلق يا أبي، فلدي الكثير من الإجازات في المدرسة، وبالنسبة لموعد جلستك المقبلة فلقد تحدثت إلى طبيبك وقال لي أن هكذا رحلة أفضل من مئة علاج بالأدوية في وضعك الحالي، وبذلك حجزت لنا رحلة في الباخرة مدتها اثنتا عشرة ساعة في 29 شباط، وهو يوم مميز لك يا أبي، فكما أعلم أنه اليوم الذي تزوجت فيه أمي، ويتوافق موعد الرحلة مع غروب الشمس، وكما أعلم فإنه المنظر المفضل لديك وسيكون لنا غرفة فيها سريران لتستريح أيضاً.

والد سلاف: بارك الله فيك يا سلاف، إنه يوم عزيز على قلبي. أتمنى من الله أن أفرح بك في القريب العاجل ليطمئن قلبي عليك بعد مغادرتي لهذه الدنيا الفانية.

***

@ART_OF_BOOK

معضلة الملك أوديب ـ التقمص المقدس ـ مجرمو الحرب

في منتصف المجهول تصب أحلمنا تماماً كسفينة في البحر، لا سبيل لنا في النجاة منها إلا بالوثوق التام بقدرة القبطان على قيادتها ليوصلنا إلى برّ الأمان. كذلك هي الحياة، لا سبيل لنا في النجاة منها إلا بالإيمان العميق بالقبطان مالكها ومالك كل شيء.

إنه بوق السفينة ينبه بموعد انطلاقها من المرفأ ويصادف ذلك مع الغروب الجميل في هذا الوقت من العام، نسمات باردة ولكن يمكن تحملها ممن يعيش في مثل هذه الدول الباردة. نزعت قبعتي ووقفت على مقدمة السفينة مع غالبية الركاب للاستمتاع بهذا المنظر العظيم، التقاء الشمس بالبحر ولون السماء منقسم بين الأزرق الصافي الخالي من الغيوم، وبين البرتقالي المتدرج الذي نرى انعكاسه على مياه البحر الصافية ممزوجاً بصوت النوارس الجميل وبوق السفينة ودخانها المتصاعد، شيء من الخيال! صورة متكاملة تبعث على الاسترخاء. كان بجانبي رجل شائب الرأس واللحية يتكلم العربية، سمعته يقول لشابة ترافقه ما الذي يحصل مع هذا الرجل الذي أمامنا، فهو لا يكف عن الصراخ على زوجته وابنه الصغير، لا أفهم شيئاً من الذي يقوله فهو فقط يصرخ بعنف، ولغة جسده توحي بأنه يتوعد الطفل وأمه بالعقاب الشديد، يبدو أنه شخص فظ، لقد أفسد علينا متعة مشاهدة الغروب.

لم أنتبه في البداية إلى ذلك الرجل الفظ الذي تكلم عنه الشائب، ولكني أمعنت الإنصات إليهم وعندما فهمت القصة اقتربت قليلاً من الشائب بعد أن ابتعدت الفتاة التي بصحبته وقلت له: أتعلم أيها العم، لقد صدقت بقولك إنه

PART OF BOOK

شخص فظ؛ فهو كان يؤنب زوجته على تربيتها لابنها الوحيد، وأنها أفسدته وتحيك المكائد في رأس ابنها بأن والده شخص سيئ، وأنها هي فقط من تحبه حتى بدت على الطفل ملامح من عقدة أوديب تجاه الأم.

الشائب: ماذا! قال ذلك فعلاً!

نذير: نعم أيها العم، مع أني في الحقيقة لا أعلم ما هي عقدة أوديب، ولكن تبدو أنها سيئة للغاية إذا نظرت إلى غضب الزوج.

الشائب: نعم يا بني، إنها من أسوأ التشخيصات والتحليلات النفسية التي أقدم عليها فرويد وأتباعه، بل اشتقت من قصة تراجيديا خطيرة في عصر الإغريق.

نذير: حقاً.... ما هي تلك القصة أيها العم؟ فلقد تشوقت كثيراً لمعرفة سبب همجية هذا الرجل مع عائلته.

الشائب: سأقصها عليك باختصار، إنها قصة ومسرحية إغريقية قديمة جداً تعود إلى أكثر من أربعمئة عام قبل الميلاد، تتحدث عن ملك طيبة لايوس الذي رأى حلماً مزعجاً جداً وطلب من العراف في ذلك الوقت تفسيراً له، وكان تفسيره بأن الملك سوف يرزق بطفل يقتله عندما يكبر ويستولي على الحكم، ويتزوج من زوجته وبالتالي يرتكب سفاح القربى بالزواج من أمه، فصعق الملك وأمر بطرد العراف لخبث تفسيره، وفي هذه الأثناء كانت فعلاً الملكة جوكاستا زوجة لايوس حاملاً ومقبلة على الإنجاب، ووضعت الملكة ولدها وكان صبياً، وبالتالي ما كان من الملك إلا أن أمر بأن تدق أصابع أقدام الطفل بمسامير ويلقى من أعلى

الجبل إلى النهر؛ لأنه لا يستطيع أن يأمر بقتله بشكل مباشر، ثم أسند الأمر إلى نائبه في الحكم أخ زوجته، وبذلك يتخلص من الطفل ولا تتحقق نبوءة العراف، وفعلاً دُقت المسامير وأُخذ الطفل ليرمى من الجبل، ولكن عندما وصل إلى قمة الجبل رق قلب خاله عليه فوجد هناك راعياً فأعطاه إياه وقال له إنه طفل يحمل دماً ملكياً، أخذ الراعي الطفل إلى ملك كورنثيا في ذلك الوقت وقص عليه الحكاية، فأمره الملك بأن يلتزم الصمت، ثم أخذ الملك الطفل وتبناه أمام شعبه وادعى أنه ابنه لأنه لا يملك أطفالًا هو وزوجته، وأطلقوا عليه اسم أوديب وتعني باللغة الإغريقية صاحب الأقدام المتورمة. وتلقى أفضل عناية وتربى على أساس أنه ولي العهد، فأصبح حكيماً وقوياً، وفي أحد الأيام كان في الحانة وسمع أحد السكارى يقول بأن أوديب ليس ابن الملك والملكة الحقيقي لأنه سمع من طبيبهما أنهما لا ينجبان الأولاد، غضب أوديب كثيراً وقرر الذهاب إلى المعبد لمقابلة العراف، وسأله هل صحيح أنني لست ابن الملك، وألح بالسؤال على العراف الذي أبى الإجابة وبعد إصرار أوديب قال العراف: كل ما أستطيع قوله لك ـ يا أوديب ـ أنك سوف تقتل أباك وتستولي على الحكم وتتزوج أمك وتنجب منها، فما كان من أوديب إلا أن غادر المعبد وقرر عدم العودة إلى كورنثيا لكي يتجنب تحقق نبوءة العراف، وهو في الطريق إلى مدينة طيبة عند مفرق الطرق التقى بشخص يصطاد واختلفا على فريسة من اصطادها أولًا، وتعاركا حتى استطاع أوديب أن يقتل ذلك الرجل ويأخذ الفريسة. ثم أكمل طريقه وسمع من أهالي المنطقة أن هناك وحشاً كبيراً ومخيفاً يسمى أبو الهول كان قد سيطر على المدينة بعد موت الملك في رحلة صيد، وهو يملك رأس امرأة وجسد أسد وجناحي نسر، كان يقتل كل من

PART_OF_BOOK

يقابله ولم يستطع أحد مجابهته، فهو يملك الكثير من الأحاجي مستحيلة الحل، ويشرط حلها للعفو عن الشخص الذي يقع بين يديه، فقام بقتل الكثير من الناس وأخل بنظام الحكم لأن جوكاستا وأخاها لم يستطيعا فعل شيء تجاهه، فالناس فقدت الثقة فيهما كحكام للبلد ودب الرعب في المدينة ولم يستطيعا التغلب عليه، ومع ذلك دخل أوديب إلى المدينة والتقى أبا الهول ووقف الناس مذعورين ينتظرون مقتل شخص آخر، ثم جاء أبو الهول بأحجيته الغريبة لأوديب: ما هو الشيء الذي يمشي على أربعة في الصباح وعلى اثنتين في الظهر وعلى ثلاثة في المساء؟

تأمّل أوديب كثيراً وبعد صمت طويل قال له إنه الإنسان، فهو يحبو على أربعة وهو صغير ويمشي على اثنتين وهو كبير ويمشي على ثلاثة مستخدماً عكازاً عندما يشيخ.

صُدم أبو الهول من الإجابة لأنها كانت صحيحة، وانفجر من شدة غضبه ومات، وبعدها أصبح أوديب المخلّص البطل الذي قضى على الشر وأعاد الأمان إلى المدينة، ونصبوه ملكاً عليها وبالتالي تزوج الملكة الجميلة جوكاستا، وأحبها كثيراً وأنجب منها طفلتين، وبعد عدة أعوام من الحكم جاء وباء الطاعون ليغزو المدينة، فقام أوديب باستدعاء العراف من المعبد لينظر في الأمر، وما إن أتى العراف والتقى بأوديب حتى دق بعصاه على الأرض وقال له أنت قتلت الملك لايوس أباك، وتزوجت أمك وأغضبت الآلهة لارتكابك زواج السفاح، ولذلك حلت لعنة الطاعون عليكم ولن تزول هذه اللعنة إلا باعترافك بآثامك وزوالك.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

غضبت جوكاستا كثيراً وطلبت من أوديب عدم الإنصات إلى العراف لأنه هو نفسه من قال إن الملك سوف يقتل على يد ابنه، ولكن زوجي الملك سابقاً كان قد مات في رحلة صيد عند مفرق الطرق، وأن ابنا قد مات بعدما رماه أخي من أعلى الجبل.

خرج أخوها عن صمته وقال: لا أعلم إن كان ابنك قد مات يا جوكاستا، فلقد أعطيته لراع في الجبل في ذلك الوقت.

أمر أوديب بإحضار ذلك الراعي، وبالفعل جاء الراعي واعترف بأنه أخذ الطفل إلى ملك كورنثيا في ذلك الوقت. صرخ أوديب: هذا جنون، فأنا التقيت برجل عند مفرق الطرق واختلفنا على فريسة كنت قد اصطدها قبله وتعاركنا وقتلته، فوصفت جوكاستا الملك لايوس لأوديب، وعندما تعرف أوديب على الملك أباه وعلم بأنه قتله وتزوج أمه وأنجب منها انهار تماماً، وبدأ يلعن نفسه ويلعن قدره وذهب ليحضر سيفه ليقتل أمه ونفسه بعدها، فوجد أن جوكاستا كانت قد شنقت نفسها، فأنزلها وأخذ دبابيس من فستانها وفقأ عينيه وبدأ بالصراخ ولوم نفسه، ثم أمر خاله بأن يرعى ابنتيه وبأن تدفن جوكاستا بمكان يليق بها، وأمر بنفيه إلى مكان لا يرى فيه النور ليجلد ذاته ويموت قهراً بذنبه العظيم. ومن هذه القصة اشتق فرويد عقدته الجنسية الغريبة وأسماها عقدة أوديب.

نذير: يا لها من قصة عظيمة! ولكن سامحني عن جهلي يا عمي، فأنا لم أسمع عن عقدة أوديب من قبل، ولكن بهذه القصة المشوقة وربطها مع الرجل الفظ أمامنا أصبحت متشوقاً أكثر لمعرفة الكثير عن هذه العقدة.

(تأتي الشابة لتقف بجانب الشائب وتعطيه الماء وظرفاً من الحبوب)

الشائب: هذه هي ابنتي سلاف، أعتقد أنها أفضل مني في شرح مثل هذه التفصيلات المتعلقة بعلم النفس، فهو يصب في اختصاصها، تفضل واطرح سؤالك عليها ودعني ألتقط أنفاسي وأشرب دوائي.

نذير (شخصّت عيناه وذهل من جمال هذه الشابة): اعذريني سيدة سلاف، ولكنني ووالدك استرسلنا في الحديث إلى أن وصلنا إلى عقدة أوديب عند فرويد، ويبدو أنك المختصة هنا في الفلسفة كما قال والدك، فأرجوك تفضلي ففضولي يكاد يقتلني.

والد سلاف: اعذروني الآن، فقد يطول حديثكما وأشعر بالبرد قليلاً، هيا فلنكمل حديثنا في الداخل.

نذير: فكرة جميلة، واسمح لي بأن أدعوكما لاحتساء القهوة، ما هي قهوتك عمي؟ وأنت يا سلاف؟

والد سلاف: سوداء ثقيلة مع ملعقة سكر.

سلاف: سأذهب معك لحمل الأكواب وأستطيع أن أجيبك في الطريق عن سؤالك.

نذير: ممتاز تفضلي إذاً، كلي آذان صاغية.

سلاف: في الحقيقة إن فرويد هو مؤسس العلاج عن طريق التحليل النفسي؛

@ART_OF_BOOK

وقدم الكثير من الأفكار والأطروحات الجديدة في ذلك العصر، وما تراه الآن من علم النفس وتحاليل الذات الإنسانية والجنسية منها خاصةً يعود الفضل فيه إلى فرويد، فهناك الكثير من العلماء والأطباء والناس العاديين حول العالم ممن يؤمنون بنظرياته وطرق علاجه، وموضوع عقدة أوديب أثار جدلًا كبيراً بين العلماء والأطباء في نفس المجال، وتستطيع القول أنهم رفضوا هذه الأفكار واعتبروها شطحات لفرويد، فمن وجهة نظر فرويد يبدأ تكوّن هذه العقدة منذ بداية قدوم الإنسان أي الطفل الرضيع، ويصف علاقة الطفل مع أمه بأنها علاقة حب جنسي، فهو يرضع من والدته ليس للغذاء فقط بل للمتعة الجنسية، ويؤكد على أن إيماءاته بعد الشبع توضح ذلك؛ تورد الخدود والشعور بالراحة وبذلك يكبر الطفل ويصبح في الثالثة أو الرابعة من عمره، وهنا تبدأ هذه العقدة بالنضوج لتصبح بشكلها التام في السابعة، وتتجه غرائزه نحو أمه فيعشقها ويراقب أباه كيف يتودد لأمه وينام بقربها، فيغار من أبيه عليها ويحقد عليه إلى أن يصل للذروة، وهي أن يتمنى أن يقتله وتصبح أمه ملكه فقط، وكذلك الأمر بالنسبة للأنثى، فالذكر يميل للأم ويعشقها ويتمنى قتل الأب، والأنثى تميل إلى الأب وتتمنى أن تقتل الأم وتأخذ مكانها، بل وتتمنى بأن تنجب طفلاً من والدها هدية له، ويُعرج على ذلك بطرح أمثلة تدعم قضيته، مثل أن الأنثى تستغل كل الفرص عند غياب أمها على طاولة السفرة لتقول أنا الماما الآن دعوني أقدم الطعام لكم، والذكر يتمنى غياب والده على الدوام ليبقى ينام في حضن والدته في الليل لتصبح فكرة الغياب هي القتل، ويأتي تباعاً باشتقاق اسم هذه العقدة بشكل رئيسي إلى أوديب الملك الذي روى لك والدي قصته، ويقول بأن أوديب حقق حلم الطفولة وهو أن يقتل أباه ويتزوج أمه معشوقته وينجب منها،

PART_OF_BOOK

وهو حلم كل طفل إلى أن يصل مرحلة البلوغ وتبدأ اهتماماته وغرائزه بالاتجاه نحو الأمور الأخرى نتيجة المجتمع والممنوع والمسموح وحرمة سفاح القربى، وليس ذلك فحسب بل إنه يطرح قصة الأمير هاملت في مسرحية شكسبير عندما قام عمه بقتل والده والزواج من والدته، وحينها جاء والده في المنام وقال له إن عمك قتلني ويجب أن تقتله لكي تنتقم لموتي، ولكن هاملت تردد كثيراً في قتل عمه، وهنا فسر فرويد تردد الأمير هاملت بأنه هو الشعور بالرضا تجاه عمه لأنه خلصه من أبيه، الذي كان يقف عقبة بينه وبين معشوقته أمه، ولكن عندما أدرك الأمير أن عمه الآن أصبح هو العائق أتخذ موقفاً حازماً وقتله.

نذير: يا إلهي، ما هذا الذي أسمعه، إنه معتوه هذا الذي اسمه فرويد بل ويمتلك خيالًا جنسياً مخيفاً وشاذاً كثيراً، إن هذه القصة هي من أكثر القصص التي سمعتها في حياتي شذوذاً، أستغفر الله، ما هذا!

سلاف: طلبت لك قهوة سوداء كما تحب.

نذير: كيف عرفت أني أحبها سوداء؟ (قالها بدهشة)

سلاف: لم يكن ذلك صعباً، فلقد رأيت آثار اصفرار على إصبعيك وهذا دليل على شراهتك للتدخين، وتسعون في المئة من مدمني الدخان بهذه الشراهة يفضلون قهوتهم سوداء، فهم يتميزون بالعصبية المفرطة ويحبون جلد الذات، فيختارون التدخين والقهوة السوداء والثياب السوداء كما ترتدي اليوم.

نذير: (ضحكت كثيراً في داخلي وزاد إعجابي بها فهي ليست فقط جميلة ومثقفة

©ART OF BOOK

بل ذكية وشديدة الانتباه) لا مشكلة لدي، أحبها سوداء ولكن اسمحي لعاداتي الشرقية بالتدخل، فأنا سوف أدفع الحساب واعتبريها عربون شكر على جوابك المفيد والجميل.

سلاف: لا بأس، فهذه طبيعة اختصاصي الرد على الأسئلة الصعبة.

نذير: (واثقة من نفسها إذاً) تفضل قهوتك عمي.

والد سلاف: نسيت أن أسألك ما اسمك يا بني، ومن أين أنت؟ لهجتك سورية يبدو أنك من حمص.

نذير: نذير هو اسمي يا عمي، وهذا صحيح فأنا من قرية في الريف الحمصي.

والد سلاف: والنعم منك يا نذير، إذاً نحن جيران فأنا من مدينة حماة ونزحت إلى السويد منذ أحداث حماه في الثمانينيات واستقررت في السويد، نادني «أبا سلاف».

نذير: تشرفت بك عمي، إذاً سلاف هي وحيدتك كما يبدو من الكنية؟

سلاف: نعم هذا صحيح (قالتها بفخر).

نذير: ما شاء الله يا عمي! والنعم ما ربيت، هل انتبهت - يا عمي - أن ذلك الرجل الفظ يضع مسدساً على خصره؟

والد سلاف: نعم هو من أمن السفينة، فلقد سمعته يقول لزوجته بأنه سوف يقوم بجولة تفتيشية سريعة على السفينة ويعود إلى الغرفة لينام، وأنا أيضاً أشعر

PART_OF_BOOK

بتوعك من البحر ويجب أن أتمدد قليلاً.

سلاف: هيا - يا أبي - إلى غرفتنا لتنال قسطاً من الراحة، تشرفنا بك أخ نذير.

نذير: أنا لي الشرف بمعرفتكم.

ثم ذهبت سلاف ووالدها.

والد سلاف: أغلقي الباب يا سلاف، وأحضري لي كوباً من الماء إذا سمحت.

سلاف: تفضل يا أبي.

والد سلاف: كان لطيفاً جداً من نذير أن يدعونا إلى القهوة، شعرت بالراحة في الحديث معه.

(دق باب الغرفة) فتحت سلاف الباب.

نذير: اعذريني يا سلاف، ولكني رأيت أن العم يشعر بدوار البحر وبعد قليل سوف يزيد تأثير الهرمون المثبط الذي يتناوله العم، ووجدت لدي دواء جيداً لدوار البحر وليس له آثار جانبية على مرضى السرطان.

اتسعت عينا سلاف من الدهشة.

سلاف: ولكن كيف عرفت أن أبي يتعالج وأنه تناول هرموناً مثبطاً؟ وكيف عرفت رقم غرفتنا في هذه السفينة الكبيرة؟

نذير: لم يكن ذلك صعباً يا سلاف، فذلك يصب في اختصاصي فأنا صيدلي

©ART OF BOOK

وخبير أدوية أيضاً، ثم إني رأيتك عندما أعطيت الدواء لوالدك من الظرف واستطعت قراءة اسمه وعرفته على الفور، أما بالنسبة لرقم الغرفة فقد كان موجوداً على حقيبتك، ولحسن الحظ أني أقيم في نفس الطابق معكما، ولكن لسوء الحظ فإن الرجل الفظ جدار غرفته على جدار غرفتي. (قلتها ضاحكاً).

سلاف: (يا لقلبي المسكين ما أجمل الرجل الذكي وسريع البديهة) شكراً لك يا أخي، هذا لطف منك، مع السلامة.

والد سلاف: قلت لك إن هذا الشاب لطيف ومريح، والآن أضيفي أنه لبق وصيدلي أيضاً.

هزت سلاف رأسها متفقة مع أبيها.

نذير: سبحان الخالق ما أجملها! أحسد زوجها وأولادها إن كان لديها، بل أحسد أباها وأصدقاءها، أحسد كل شخص يعرفها منذ زمن بعيد، لطيفة جداً. اقتربت نحو باب غرفتي لأرتاح قليلاً وبدأت أسمع صوت صراخ من غرفة رجل الأمن الفظ، يبدو أن زوجته تصرخ عليه لحقارته بالتعامل مع ابنه، وسمعت بكاء الطفل أيضاً، دخلت غرفتي فبدا الصوت من الداخل أعلى وأبشع، وفجأة سمعت صوت ضرب بالسوط، يبدو أن هذا الحقير يضربها هي وابنها، تذكرت والدي عندما صفعني أمام أمي والجميع، تذكرت ألم الصفعة وأشفقت على الطفل ووالدته. آه رأسي يكاد يقتلني، تباً لهما، تركت الغرفة سريعاً وتوجهت إلى المطعم لأشرب قهوة بعد تناول ثلاثة أقراص مسكنة لوجع الرأس، مع أنني لم أعلم حقارة من

PART_OF_BOOK

سببت لي هذا الصداع، حقارته هو أم حقارة والدي!

كان أمامي ثلاثة رجال ضخام جداً ويبدو أنهم في بداية الخمسينات، وهم يجلسون في البار ويلقون النكات ويضحكون بصوت عال، وأقداح المشروب ما تكاد تفرغ إلا ويطلبون من الساقي أن يملأها مجدداً، وسمعت أحدهم يطلب من زميله أن يغني لهم أغنية الانتصار التي كانوا يغنونها بعد المعركة، وعندما انتهوا من الغناء شربوا نخب العاهرات اللواتي اغتصبوهن بعد كل معركة على حسب قولهم، وتبين لي أنهم جنود أمريكان سابقون كانوا قد حاربوا في أفغانستان، وبعد قليل شربوا نخباً أطلقوا عليه «نخب الحياة» لأنهم هم الثلاثة الذين نجوا من تفجير سيارة مفخخة كانت تقودها إحدى الإرهابيات المحجبات حسب وصفهم، وقد أودت بحياة جميع أصدقائهم الذين كانوا معهم، وتقاعدوا صحياً بعدها لأني أرى كل شخص منهم ينقصه شيء، الأول بيد واحدة، والثاني بعين واحدة، والثالث على كرسي مدولب يبدو أنه فقد قدميه، نظرت إليهم نظرة كره وقلت في نفسي: إنه عقاب الله لهم، انظر إلى حالهم، مجرمون سكيرون بائسون يعانون أمراضاً نفسية وعقداً مخيفة، ويعايشون شعور ما بعد الصدمة من الانفجار ورؤية أشلاء أصدقائهم أمامهم.

أهلاً يا سلاف، أهذه أنت؟ يبدو أن اليوم مليء بالمصادفات الجميلة.

سلاف: لا أعلم، من ناحيتي لا أؤمن بالصدفة يا نذير، ولكني أؤمن بأن كل شيء له تقدير وتفسير، وتفسيري هنا أني أحتاج إلى كوب كبير من القهوة والقليل من السكريات؛ لأنني لا أستطيع النوم في طريق السفر، وأنت ما تفسيرك؟

PART_OF_BOOK

نذير: تفسيري أنه عليَّ أن أشكر الرجل الحقير الفظ لأنه سبب لي صداعاً وقررت أن آتي لشرب القهوة وألتقي بك، أيعني ذلك أنه مقدر لي مقابلتك هنا يا سلاف؟

سلاف: يبدو أنه كذلك.

غاب نذير دقيقتين ثم عاد.

نذير: اشتريت قطعتين من الكيك خفيف السكريات بمناسبة عيد ميلادي اليوم (ضحكت سلاف ضحكة عالية أذاب قلبي صوتها ودمعت عيناي لجمالها) تا تا تا تفضضلي.

سلاف: يبدو أنك بارع في الكذب فلم تطرف لك عين وأنت تقولها، ولكن ذلك كان لطيفاً شكراً لك، ولكن عليك ألا تتنمر على الناس بأمراضهم، فالمتلعثمون عندهم مشاعر، وتلعثمهم ناتج عن الخوف غالباً، ثم فكر في أطفالك. (قالتها مع ابتسامة شقية تفيد بأنها فهمت المزحة، فضحك نذير كثيراً وشرب الماء ليهدئ موجة التلعثم التي أصابته).

نذير: أنا لا أكذب يا سلاف، فاليوم فعلاً هو عيد ميلادي، وأنا في طريقي إلى أختي وعائلتها، لأنهم أصروا أن يحتفلوا معي، وأن أطفالها هم من سيصنعون قالب الحلوى، ثم إني لا أتنمر على الناس فأنا متلعثم أيضاً، وأتلعثم فقط عندما أكون خائفاً حد الهلع أو سعيداً جداً.

(احمر وجه سلاف خجلاً واحمر قلبي معه، ولكنها تداركت الموقف)

سلاف: يبدو أنك مليء بالمفاجآت يا نذير، ولكن مِمَ أنت خائف حد الهلع الآن؟ (قالتها بخباثة)

نذير: (كيف أقول لها أنني اكتشفت أني سعيد جداً لوجودها بقربي... كيف أقول لها أن قلبي يرتجف عند النظر في عينيها... كيف أقول لها أنني للمرة الأولى أشعر أني أريد شيئاً بكل هذه القوة... كيف أقول لها أن ألم الصداع قد زال مع ضحكتها).

خائف مما هو مقدر لي يا سلاف، فأنا لا أطيق الفراق.

سلاف: على العكس يا صديقي، فأنا أؤمن كما قال أحد الحكماء بأن الفراق هو القاعدة في الحياة واللقاء هو الاستثناء العابر، وأقدارنا نحن من نختارها ونمليها على ملائكتنا لتسجلها في صحفنا، ولكنها معلومة وتقع ضمن مجال معرفة الله، فهو مطلق العلم والمعرفة سبحانه. على جميع الأحوال كل أربعة أعوام وأنت بخير، ثم إنه يوم جميل ومميز كثيراً بالنسبة لي أيضاً لأن أبي وأمي المرحومة قد تزوجا في مثل هذا اليوم، لذلك كانا يحتفلان به كثيراً وبقي يوماً جميلاً حتى بعد وفاة أمي.

نذير: أتمنى كثيراً أن أصفه بأنه يوم جميل، ولكنه مع الأسف لم يصحبه إلا الشؤم في حياتي، ففي هذا اليوم توفيت جدتي وأصبحت نذير الشؤم، وفي مثل هذا اليوم صفعني والدي وهجرني أنا ووالدتي. ولكن كانت أمي دائماً تصف هذا اليوم بأنه جميل، والآن تبين لي أنها على حق، واسمحي لي أن أقول لك وأنت بخير،

PART_OF_BOOK

شكراً لك لمشاركتي كعكة ميلادي (تمنيت أن أقول لها بأنه اليوم أصبح أجمل أيام حياتي)، أتعلمين أن جوابك هذا لخص كل حياتي، وأنا كنت أعتقد أن الحياة تعيسة حزينة مليئة بالفراق، ولكن يبدو أن الفراق فعلاً هو مغزى الحياة، واللقاء يجب أن يقدس ويحتفل به لأنه كما تفضلت هو الاستثناء العابر وها نحن نحتفل بهذا اللقاء.

سلاف: أنصت قليلاً يا نذير، ما هذا الذي أسمعه؟ يبدو أنه برفقتنا عائلة من البوذيين.

نذير: كيف عرفت ذلك؟

سلاف: انظر خلفك بهدوء تام لكي تفهم.

التفت نذير بسرعة خاطفة وألقى نظرة عميقة وعاد بنظره إلى سلاف فوجدها تضع يدها على رأسها فضحك كثيراً.

سلاف: أهذا ما تدعوه الهدوء التام وعدم لفت الانتباه؟

والآن دعني أنصت إلى تعاليم الأب لابنه، يبدو أن لدينا قصة مشوقة هنا.

قالتها سلاف بحماس تام ووضعت يدها على فمها لتشير لنذير بأن عليه أن يطبق فمه، واستغرق نذير بالنظر إلى سلاف وجاء إلى مخيلته لحظة اعترافه بالإعجاب بها، وأنه يود أن يتعرف عليها أكثر إن سمحت له، ولكن جاءته الضربة القاضية في مخيلته عندما وافقت سلاف، ولكن سألته من أنت، ما دينك، إلى

PART_OF_BOOK

من ولاؤك، وتلعثم كثيراً لأنه غير متأكد من جوابه، فهو بالكاد خرج من دائرة الأوهام المسيحية وداروين وغالبية الأسئلة الشائكة، وبدأ بقراءة الكتب التي أعطاه إياها فراس، القرآن وسيرة النبي محمد، ولكنه لم ينته بعد ولم يحدد مساره وولاءه. ما يعلمه فقط أنه يؤمن بالله الواحد وأن عيسى ومحمداً ومن سبقهما هم من الأنبياء، وعندها استيقظ من هول الصدمة وقال بصوت مرتفع لا لا هذا مستحيل لن تقبل بي أبداً.

سلاف: من هذه التي لن تقبل بك يا نذير؟ هل أنت على ما يرام؟

نذير: نعم نعم أنا بخير... قولي لي الآن ما الذي يحصل وإلى ماذا توصلت بعد تفعيل كل مستشعراتك الحسية وتوجيهها بعمق تجاه تلك العائلة الهادئة واللطيفة.

سلاف: يبدو أن لدينا مثالًا مهماً عن الرهبان البوذيين هنا اليوم، هل لديك فكرة عنهم يا نذير؟

نذير: كلا فاهتماماتي في الآونة الأخيرة كانت منصبة على داروين والمسيحية والإسلام، ولكن قرأت مقالًا عن أديان الهند وكان من ضمنها البوذية ولكني لم أتعمق به كثيراً، ولكن يبدو أنك على دراية بالقصة كاملةً وأنا متشوق لسماعها.

سلاف: إذاً أنت مهتم مثلي بالعوالم والأديان والثقافات المختلفة، هذا شيء جميل وهذه نقطة إيجابية تحسب لصالحك.

تورد وجه نذير بابتسامة وقال: ليس إلى هذا الحد ولكني توّاق للمعرفة

@ART_OF_BOOK

وللحقيقة. قاطعته سلاف: إذاً أنت تجلس في المكان الصحيح.

سلاف: في الحقيقة لفت انتباهي حوار الرجل مع زوجته وهو يقول لها بأنه يكاد يكون متأكداً بأن روح ابنه هي روح لراهب قديم من سريلانكا، وأن الراهب كان يتكلم ويترجم النصوص من اللغات القديمة كلغة بالي والسنسكريتية، وتجسدت روحه بجسد ابنهما بعد أن انتقلت روح الراهب إليه، وأنت كما تعلم - يا نذير - يؤمنون بالتناسخ أو التقمص كما ندعوها، ويعرجون على ذلك بأنك في بعض الأحيان تتراءى إليك لحظات أو مواقف تقول فيها بأنك سمعت هذا الحديث من قبل، أو تدخل إلى مكان وفجأة تقول أنك تشعر بأنك كنت هنا من قبل، أو تلتقي بشخص لتقول أنك تعرفه من قبل، وتقدم تفاسيرهم على هذه الظاهرة بأن أرواحهم القديمة كانت هنا، أو سمعت هكذا حديث أو التقت بشخص مشابه، وعلى هذا ومثله تبنى اعتقاداتهم وإيمانهم، أما الأب هنا يقول لزوجته بأنه في بعض الأحيان يسمع ابنه يتكلم بتلك اللغات، حتى أنه أحضر بعض النصوص القديمة ووضعها أمام ابنه الآن، وما كان من الطفل إلا أن قرأها بطلاقة وترجمها لأمه، ليقف الأب مذهولًا لأن هذا شيء وحدث عظيم أن يكون لهما ولد مبارك بروح راهب قديم، وعلى ذلك اختارا هذه الرحلة لمقابلة أحد الرهبان القدماء في ألمانيا ليتأكدا من ذلك، فإنه إن كان هذا صحيحاً فعليهما أن يبدآ بتهيئة الطفل والسفر إلى سريلانكا وتقديمه للمعبد لكي يصبح راهباً، ويتعلم تعاليم البوذية على يد كبار المعلمين هناك، وعداك عن أنه يعد مقدساً بهذه الروح والحياة التي يتقمصها الآن.

قال نذير بدهشة: إن مثل هكذا معتقد هو شيء خطير على البشرية، فاليوم يستطيع أي شخص أن يأتي ويقول إنه عيسى أو محمد أو هتلر أو ستالين أو أي يكن، وهذا شيء خطير فعلاً يهدد كل المجتمعات والأديان في حال تم اعتماده، ثم إنه ماذا بعد ذلك، هل تبقى هذه الروح تنتقل من شخص إلى آخر إلى ما لا نهاية؟ ما المغزى من هكذا اعتقاد يا سلاف؟

سلاف: أوافقك الرأي بأنه خطير كمعتقد، ولكن ذلك يهدد أتباع المعتقد نفسه ولا يؤثر أبداً على أصحاب العقيدة الثابتة والإيمان الحقيقي، أما بخصوص عدد انتقالات الروح فهي تتعلق بدرجة طهارتها، فهم يقولون بأن انتقال الروح ما هو إلا تكفير للحيوات السابقة، إلى أن تصبح هذه الروح طاهرة تماماً وتدخل مرحلة النيرفانا كما يدعونها أي الخلاص، اللا شيء، الحقيقة، ويتحررون بدورهم من دور الولادة، ولكن للوصول إلى النيرفانا تلك يحتاج الكثير من التأمل والتحرر والكثير من جهاد النفس والبدن والعقل كما يصفها سيدهارتا تاغوناما الملقب بيوذا، وإليه تعود تسمية هذا الدين فهو مؤسسه الحقيقي، وأتباعه اليوم أكثر من أربعمئة مليون حول العالم، ولكن من وجهة نظري هو لا يرتقي إلى مرحلة الدين، فلم يتطرق بوذا إلى موضوع الوجود الإلهي لا بإثبات ولا بإنكار، بل ترك الموضوع معلقاً، وهم لا يكترثون بذلك أبداً ولا يبالون بأي دين أو معتقد آخر، ولا يملكون أجوبة شافية عن كل تلك الأسئلة الوجودية، بل هم يكرسون حياتهم فقط للتأمل والزهد والتخلي عن كل ملذات الحياة وكبح شهوات البدن والابتعاد عن شواغل وفضول العقل.

ومن وجهة نظر بوذا فإن الحياة والموت والفرح والحزن وكل شيء هو عبارة

ART OF BOOK
©ART OF BOOK

عن معاناة؛ لأن كل شيء زائل مع الوقت، فعلى الإنسان أن يعيش متأملاً زاهداً ويتبع الطريق الحق الذي اتبعه بوذا نفسه ليصل إلى مرحلة النيرفانا، ويتحرر ويصل إلى الحقيقة أو إلى ما بعد الذات وإخلاء النفس عن النفس، ويتم ذلك باتباع ما سماه النصائح الثمانية، وهي: المعرفة الحق، قول الحق، المطمح الحق، ولا تستخدم قوتك إلا بالحق، فعل الحق، سلوك الحق، وعي الحق، وتركيز الحق، وعلى هذه الشعب تبنى العقيدة. بنظري إنها فلسفة أخلاقية جيدة وحميدة وتدعو إلى تهذيب السلوك والروح، ولكن هذا وحده ليس كافياً وهكذا معتقد ليس كاملاً وليس شاملاً بل هو يختص بأخلاقيات وسلوكيات الفرد، لذلك قلت إنه لا يرتقي لأن يكون ديناً على الرغم من كثرة أتباعه.

نذير: انظري لقد تلقى هدية من والدته عباءة برتقالية!

سلاف: نعم إنه اللباس التقليدي للرهبان البوذيين، ولكن يجب أولًا المرور ببعض الطقوس في المعبد، ويقوم بها

المعلمون الذين سيشرفون على تعليم الطفل.

قاطعها نذير قائلاً: تقصدين كما هو حال التعميد عند المسيحيين، وبذلك يذهب أولئك الذين نذروا حياتهم للدين ليصبحوا مبشرين إلى مدارس خاصة وكنائس للتعلم والرهبنة. هزت رأسها سلاف قائلة: نعم إنها متشابهة في الاسم ولكنها مختلفة بالطقوس من دين إلى آخر، فعند البوذيين يجب أن يقوم المعلمون بحلق رأس الطفل بعد أن يجلس جلسة اللوتس (التحكم في الجسد ككل)، ثم

يتساقط شعره بين يديه، ومن ثم يقومون بتغسيل رأسه وقدميه ويسجد لوالديه للمرة الأخيرة، فهم يسجدون للأكبر عمراً بالأحوال العادية ويسجد لمعلميه تقديراً لهم، ومن ثم يتلو العهد (أتخذ من بوذا ملجئي، أتخذ من أفكار بوذا ملجئي، أتخذ من البوذيين أهلي وعشيرتي)، ومن ثم يتقدم والداه بأجمل الهدايا للطفل ويسجدان له أمام الجميع؛ لأنه في نظرهم قد أصبح أقدر روحياً فهو من الرهبان الآن، وهكذا إلى أن يصبح في العشرين من عمره ويصبح اسمه (بكو)، ويبدأ بالمراحل الأخرى وهي عدم الأكل بعد الساعة الثانية عشرة، ويبدأ بشحذ الأكل له ولغيره لكي يتعلم التواضع، لأنهم يرون أن التواضع هو سبيل الحكمة، ويمنع نفسه عن حضور الحفلات والاستماع إلى الموسيقى، وارتداء الناعم من اللباس أو الحلي كالذهب والفضة ويبدأ بالنصائح الثمانية التي أوصى بها بوذا للوصول إلى النيرفانا.

نذير: طقوس غريبة ولكنها بسيطة بجميع الأحوال، كنت أعتقد أنهم يؤمنون بأن بوذا هو إله أو شيء من هذا القبيل، ولكني فهمت من حديثك غير ذلك!

سلاف: نعم نعم حالهم كحال الكثير من أتباع الديانات في المغالاة، فالكثير من أتباعه يغالون في تقديره حتى يتخذوه إلهاً لهم، فيعبدونه ويتخذون له تماثيل ويقدمون القرابين وما إلى ذلك، ولكنه هو لم يقل أو يأمر بذلك كحال عيسى ابن مريم والعُزير.

شهق نذير بصوت عال وقال: العُزير! كيف ذلك، من هو العُزير، ما هي قصته؟

قاطعته سلاف بابتسامة خفيفة وقالت: ما حالك يا نذير! لا تقل لي أنك مسلم ومهتم بالأمور الدينية ولم تسمع بقصة العُزَير سابقاً هذا غريب حقاً، سكت نذير

PART_OF_BOOK

فهو لا يريد أن يثير شكوك سلاف حول إيمانه ثم قال: لا أريد الكذب عليك يا سلاف، فمعلوماتي قليلة عن عُزير في الإسلام ويبدو أنني لم أصل إلى قصته بعد.

قالت سلاف لا عليك، فإن كثيراً من المسلمين لا يعرفون أن عُزير وقصته قد ذكرت في القرآن، ولكن أنصحك بسماع القصة من والدي إن سنحت لك الفرصة، فهو خبير به أكثر مني، والآن أستمحيك عذراً عليَّ الذهاب للاطمئنان على حال أبي.

هز نذير رأسه وقال: نعم لدينا متسع من الوقت على السفينة لسماع المزيد من القصص المشوقة، خاصة إذا كانت على العشاء الذي يقدم في الساعة السابعة هنا في المطعم.

ابتسمت سلاف موضحةً فهمها لرسالة نذير، ومضت في طريقها.

انتبه نذير بأن الجنود السكارى كانوا قد رمقوا سلاف بنظرة خسيسة وضحكوا بعدها، ولكنه لم يبال وقال في نفسه إنهم مريضون حقاً.

***

@ART_OF_BOOK

العشاء على السفينة

دقت الساعة السابعة، إنه وقت العشاء الموعود، وكم أتمنى ألا يكون العشاء الأخير لنا، على كل حال ها هي سلاف تسند والدها الشائب من بعيد، لوحت لهما بيدي واقتربت منهما.

ـ مساء الخير عمي أبا سلاف، أتمنى أن تكون قد نلت قسطاً من الراحة. أسند نفسه إلى كرسيه وأخذ نفساً عميقاً وقال: لا أخفيك سراً يا بني، لقد ارتحت كثيراً بعد تناولي الأقراص التي أحضرتها أنت، وعلى ذلك أشكرك فأنت شخص طيب. في هذا الوقت استأذنت سلاف للذهاب إلى الحمام وأكمل الشائب: والآن قل لي ما حالك في هذه الحياة، وكيف تعيش وماذا عن عائلتك؟

حاولت قدر المستطاع كسب الوقت بالحديث عن شيء آخر حتى تعود سلاف وتسمع مني القصة كاملةً، فهي عندما تركتني في المطعم بقيت صامتاً هادئاً أفكر في حالي وفي حياتي، وإلى أين سوف تقودني هذه الرحلة وهذا اليوم المجنون، وهكذا توصلت إلى قرار بأن أعترف لسلاف وأبيها على العشاء بكل شيء.

نذير: قبل ذلك ـ يا عمي ـ اسمح لي بأن أسألك عن العُزير، فلقد علمت من سلاف أنك خبير به، وأنا مهتم بمعرفة قصته كاملةً إن سمحت.

والد سلاف: نعم هذا صحيح، فلقد استشهدت بقصته في الكثير من المرات في السنوات الأخيرة في المسجد، خاصةً بعد هجرة الكثير من العرب بعد الحرب التي اجتاحت البلد ودمرت مدناً وقرى بحالها، فالكثير منهم تزعزع إيمانهم واعتقدوا

ART OF BOOK

أنها النهاية لتلك البلد، ونسوا أن الله على كل شيء قدير.

سأقصها عليك بإيجاز مع اختلاف تفاصيلها بين الرواة والمفسرين، ولكن لنأخذ منها العبرة، وهي قصة ذكرت في القرآن في سورة البقرة إذ تقول بأن في ذلك الزمان الماضي في بيت المقدس عند بني إسرائيل أو ما نقول عنهم اليهود، كان هناك رجل صالح حكيم - رجحوا في التفسير أنه العُزَير - يسكن القرية في بيته مع زوجته وولده وخادمة تلبي حاجات المنزل، وفي يوم من الأيام خرج صباحاً مع بزوغ الفجر وأخذ معه زوادته من عنب وتين وكسرات من الخبز اليابس، وصعد على ظهر حماره وشدّ رحاله في رحلة إلى قرية بعيدة بعض الشيء له فيها مزرعة وماشية، وذهب ليطمئن على حال الزرع، وفي طريق العودة نظر من بعيد فرأى قريته خاوية على عروشها، أي إنها مدمرة بالكامل، كل البيوت تحولت إلى ركام بل وأحرقت ولا يوجد فيها أي أثر لإنسان، فصعد إلى سفح تلة تشرف على القرية، ثم أوى إلى كهف صغير فيها وربط حماره في زاويته، وأخرج زوادته ووضع كسرات الخبز وعصر عليه العنب ليصبح رطباً سهلً للأكل، ونظر إلى القرية وأبدى تعجبه وقال: كيف تحيا هذه الأرض بعد أن أحرقت ودمرت بالكامل.

ثم أخذته الغفوة، بل أماته الله مئة عام ثم بعثه من جديد كما ذكر بالقرآن نصاً، وعندما استيقظ ونظر حوله أرسل الله له ملكاً أو كان أحد الرجال أتى إلى هناك، الله أعلم، وسأله: كم لبثت أي ما هي مدة غفوتك؟ فقال العُزَير: ربما يوماً. ثم نظر إلى الشمس ووجدها آيلةً للغروب ثم قال: أو بعض يوم. أي القليل من ساعات النوم كانت، فقال له الملك أو الرجل الذي أتاه من عند الله: بل لبثت

مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يصبه أذى، وانظر إلى حمارك كيف أصبح لحمه رماداً وبقي منه العظام. وفعلاً نظر العُزَير إلى عصير العنب والخبز وكان قد بقي على حاله، ونظر في شكله ولحيته فكانا على حالهما، ثم نظر إلى عظام حماره، وعندها ظهرت دهشته وصدق كلم الملك، في حين أن الله أعاد إحياء الحمار أمامه ليريه الجواب عن سؤاله عن كيفية الإحياء، وليثبت الله بأنه على كل شيء قدير، إذ اصطفت عظام الحمار ثم بدأت تكسى باللحم ثم اللحم كسي جلداً ثم شعراً ونهق حماره، فخرَّ العُزَير راكعاً من عظمة المشهد وقال: أعلم أن الله على كل شيء قدير. ثم قام لينزل إلى قريته ليرى كيف أصبحت وحين اقترب من القرية رأى فيها الحياة والبشر والبيوت المعمرة المأهولة، فهرع سريعاً إلى مكان بيته القديم فوجده قائماً ولكن ليس بنفس الشكل القديم، ونظر إلى بابه وإذا بامرأة عجوز عمياء مقعدة تجلس بجواره، وكان قد شك بأنها الخادمة التي كانت في بيته ولكنها كبرت مئة عام، فسألها عن اسمها وعندما تأكد أنها هي قال لها: أنا العُزَير. فضحكت باستهزاء وقالت: إن العُزير كان قد اختفى منذ مئة عام ولم يسأل عنه أحد، ثم إن للعُزَير علامة بأنه مستجاب الدعاء فهل أثبت ذلك ودعوت لي فأشفى؟ فدعا لها العُزير فبرأت وشفيت وعندما نظرت إليه قالت: نعم صدقت إنه أنت. ثم أخذته إلى مكان تجمع قومها وروت لهم ما حدث، وكان من بين الحضور ابن العُزَير ولكنه كان عجوزاً تجاوز المئة عام وقال: إن والدي العُزير يملك شامةً كبيرة بين كتفيه. وعندما أظهرها لهم دهشوا بذلك، ثم قال أحد الحضور المشككين: أليس العُزَير هو من حفظة التوراة فدعونا نتأكد من صحة ادعائه، فجدي كان قد دفن التوراة عندما سمع بقدوم بوختنصر إلى بيت المقدس، فقد

كان يعلم بأنه حاقد على اليهود والتوراة، وسوف يقدم على حرق كل الكتب وقتل وتشريد وسبي الناس. وفعلاً قام لجلب بعض الكتيبات الباقية من التوراة لأن بقية المجلدات أحرقت واختفت، وقرأ العُزَير التوراة عليهم كاملاً فجاء مصادقاً لكتيباتهم القليلة، وحينها أيقن الجميع بأنه العُزير حقاً، وبما أنه الوحيد المتبقي من حفظة التوراة فقد قام ببناء المجتمع وبكتابة وتدريس التوراة في بيت المقدس من جديد، وبالتالي أصبح قديساً ونبياً في نظر بني إسرائيل إلى أن جاءت طائفة منهم وادعت بأنه ابن الله.

هذه القصة هي قصة المسلمين والقرآن الكريم، فمنهم من يقول إنه نبي ومنهم من يقول إنه رجل صالح في ذلك الزمان، وإنك لتجد قصصاً مختلفة تروى عند اليهود، مثلاً فالعُزَير الملقب بعزرا الكاتب عندهم هو المؤسس لإعادة الهيبة والقوة والإيمان والتوراة لليهود آنذاك، فهو كتب ما يسمى بأسفار عزرا ونحميا التي نشاهدها اليوم في الكتاب المقدس، فيبدون له كرامات عظيمة وهو مقدس كثيراً وبالتالي هو مقدس أيضاً لدى المسيحيين، فهو المعلم والموجد والمحيي للكتاب المقدس وقوانينه، ومنهم من يعرف بكتبه وقدسيته، وطوائف أخرى لا تعرف بذلك أبداً.

كان نذير هادئاً منصتاً كل الوقت يحاول جمع ما قالته أمه وما قاله له الأب في الكنيسة وما يقوله والد سلاف، ولقد استشف بأن رسالة والدته قبل وفاتها باتت واضحة مع تطابق رؤيتها بقصة العُزَير عند المسلمين، وتذكر عندما غادر قريتهم كيف كانت خالية من البشر وكل ما فيها ركام، وربط الأمرين بقدرة الله على

الإحياء، وشهد أمامه مثالًا على ذلك عندما غادر الميناء الذي تحول إلى ركام في الحرب العالمية الثانية، والآن أصبح يعج بالسفن والقوارب والبناء ومدينته من أجمل المدن الساحلية التي يأتي إليها السياح صيفاً للاصطياف والتسوق، ويعد المرفأ الأساسي للدول الإسكندنافية الذي يربطها مع أوربا ولم يكن قد مضى مئة عام. سبحان الله، فعلاً إن الله على كل شيء قدير، ولكن ما المغزى من طلب أمي بأن يكون مُخلصي ومُنطقي ويكون لي ولد يحمل اسماً إسلامياً!؟

جاءت سلاف معتذرة عن تأخرها وقالت إن العشاء سيبرد، فذهبت لجلب وجبة العشاء ورافقتها لأحضر وجبتي، وفي الطريق قالت أتمنى ألا تكون قد أسهبت بالشرح لوالدي عن حياتك، فأنا مهتمة بسماع قصص جديدة على الدوام.

قالتها باهتمام حقاً أو هكذا بدا لي للوهلة الأولى، فضحكت وقلت لها: لقد فاتك الكثير من الإثارة فبت الآن عالماً بقصة العُزير. ابتسمت وقالت: ما لي في قصة العُزَير يا نذير، سألتك عن قصتك الآن.

تباطأت خطوات نذير وهو يفكر ويقول إنها مهتمة حقاً.

وقفت سلاف تصرخ: هيا ـ يا نذير ـ ارحمني من ذهولك على كل الأشياء، أكاد أموت من الجوع، هل طلبت منهم أن يحضّروا وجبتك من قبل لتتأكد أنها خالية من لحم أو دهن الخنزير؟

قلت لها: لا فلقد طلبت الأرز والدجاج، إنه الخيار المناسب خارج المنزل على الدوام. قالت: هذا من الحكمة، أعتقد أننا سوف نتناول نفس الوجبة على العشاء

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

إذاً.

وقفنا في طابور طويل لأنه وقت الذروة الآن في المطعم، وكان يقف خلفي الجندي ذو العين الواحدة وهو يتبادل الهمس مع صديقه ذي اليد الواحدة، وسمعته يقول له: يا لهم من خنازير لا يحترمون قدر أحد، فهم يأتون إلى بلدنا ليفجروا أنفسهم وينشروا جهلهم وتخلفهم، ويقفوا أمامنا ليتذمروا من طعامنا.

لم أبال لحديثه التافه ولكن يبدو أن سلاف سمعته فاقتربت منه بكل جرأة وقالت له: هل تعلم بأن همسك صوته مسموع ويفضل أن تخفض صوت أفكارك الغبية، فلا أحد مهتم هنا بحديثك المليء بالحقد والكراهية، ومن الأفضل لك الاستحمام لعل أفكارك تصبح نظيفة ورائحتك أيضاً، فكما تعلم المياه مجانية على متن السفينة ورائحتك النتنة تفوح في كل مكان. وأدارت ظهرها ومشت ومشيت وراءها مصعوقاً مذهولًا من الجرأة التي أبدتها. إنها مقاتلة حقيقية.

ضحك صديقه صاحب اليد الواحدة عليه، وقال له لقد سحقتك هذه الإرهابية الصغيرة. ما كان لصاحب العين الواحدة إلا أن كتم غيظه واحمر وجهه واعتلته نظرة الغضب وبقي صامتاً مهزوماً.

والآن يا عمي أبا سلاف، اسمح لي أن أسرد لك قصتي كاملةً على بطن ممتلئة. وفعلاً بدأت بسرد قصتي من يوم ميلادي حتى وصلت إلى يوم تعميدي. وبدت على سلاف ملمح الحزن والدهشة والفرح، أما أبوها فبدا متفهماً يهز رأسه ويقول لا حول ولا قوة إلا بالله طوال الوقت، وأكملت القصة إلى يومنا هذا،

PART_OF_BOOK

ولكنني تجنبت ذكر إيمان فهي في غالب الأمر اختارت حياتها ولعلها تزوجت وأصبح لها أولاد كثر، وإلا لكانت أرسلت لي لتفي بالوعد الذي قطعته. بعدها ساد صمت ثقيل في الأجواء.

فجأة ومن دون سابق إنذار أطلقت سلاف سؤالها المنتظر: إذاً أنت مسيحي!

تلعثمت كثيراً ولم أستطع النطق ولا حتى بحرف واحد، علا صوت دقات قلبي ليغطي المكان كله بضجيجها وأحسست بدوار عميق، يبدو أني أتعرض إلى نوبة هلع. انتبه والد سلاف وقدم لي الماء وقال اشرب يا بني. شربت وأخذت شهيقاً طويلً ليعود لي لون وجهي.

ـ لا أعلم ـ يا سلاف ـ ماذا أصنف اليوم في قاموس المفردات وفي علم الأديان، فأنا لم أتوصل إلى هذه النقطة بعد.

اتسعت عينا سلاف وتغيرت نبرتها في طرح السؤال الذي يليه. كيف ذلك؟ ما الذي تقصده بأنك لا تعلم، وهل يوجد شخص لا يعلم بماذا يؤمن في داخله؟

تنحنح والد سلاف وقال: على مهلك يا ابنتي، فكل إنسان في مرحلة ما من مراحل حياته ونضجه يدخل في حيرة، ويبدأ رحلته بالبحث عن الصواب والحقيقة، فمنهم من لا يريد أن يشغل أفكاره فيأخذ الأجوبة جاهزة من شيوخ أو قسيسين أو من الوالدين، ومنهم من لا يهمه كل الأمر، فكلما طرقت على رأسه فكرة الإيمان وتلك الأسئلة المعقدة يبادرها بالمماطلة والإهمال، ومنهم من يحب الحقيقة ويكون تواقاً إليها وبالتالي يكون متفتح الذهن والبصيرة، ولكنه يحتاج وقتاً ليدرس ويعاين

ART_OF_BOOK
©ART_OF_BOOK

كل الموجودات التي تحيط به، ويشك بكل المعتقدات التي يسمع بها أو يقرأ عنها أو يعايشها، وهذا ما يسمى بالعقل النقدي، وفي نهاية المطاف سوف يصل للإيمان بشيء ما بحسب اجتهاده ووعيه.

تمنيت أن أحضن الشائب الحكيم، فلقد أراح قلبي وفكري بل أحسست بأني مطمئن تماماً وعلى الطريق الصحيح. ما كان مني إلا أن نظرت إلى سلاف وقلت لها: أعتقد أني من الصنف الأخير الذي ذكره والدك يا سلاف، فأنا باحث عن الحقيقة ولدي بعض الأسئلة التي أحاول العثور على أجوبة شافية عنها.

قالت سلاف: أعتذر يا نذير، كنت أمازحك. مسألة الإيمان مسألة شخصية لا يجوز للمرء التدخل فيها، ولكن إن شئت فشاركنا بعضاً من أسئلتك لعلنا نستطيع الإجابة عنها.

حاول والد سلاف تغيير الموضوع لتهدئة الجو وقال: انظرا إلى ذلك القادم بلباس أبيض فخم وعليه الكثير من الرتب والنجوم وقبعة مسطّرة سوداء الأطراف، يبدو أنه جنرال ما أو على ما أعتقد أنه قبطان السفينة، وها هو يجلس إلى الطاولة إلى جوار السيدة المجنونة وزوجها المسكين.

التفتت إليه سلاف ونذير في حين تبادل القبطان العناق الطويل مع السيدة واكتفى بالمصافحة مع رجلها، ثم قالت سلاف: كيف علمت أن السيدة مجنونة يا والدي. وأضاف نذير: وما قصة زوجها المسكين؟

أتذكرون عندما بقيت وحدي أنتظركما لتحضرا وجبة العشاء وطال غيابكما

PART_OF_BOOK

قليلاً، سمعت السيدة تتشدق على زوجها بعبارات وتصرفات أرستقراطية وإقطاعية عالية المستوى، فهي ذكّرت زوجها بأن عائلتها تملك هذه السفينة بل عدة سفن، ولكن هذه بالذات سميت على اسمها ووهبها إياها والدها في حفلة زفافهما، وبالتالي هي المشرفة عليها والآمرة الناهية فيها، بل وقالت إن القبطان الذي عينته هو من أشرس مروضي البحر، فهي تستعين به بكل رحلتها البحرية لأنه كان زميلاً لها أيام الدراسة، والآن هو قبطان هذه السفينة فقط عندما يكونون على متنها فلا ثقة لها بغيره بأن تأتمنه على حياتها، وأضافت بأن حياتها ربما كانت أجمل لو أنها تزوجته بدلًا من زوجها، ولكن وضع عائلتها ومكانتهم واتفاقيات والدها التجارية أجبرتها على الزواج من زوجها الذي ينتمي للعائلة الشريكة لتجارة والدها، مع أنه عقيم ومصاب بداء السكري منذ الصغر، واشتكت منه ووصفته بالعاجز الصغير، وبعدها أشارت إلى الحراس الشخصيين لها بأن يجهزوا الطاولة لأنها ستستقبل ضيفاً مميزاً مع أنه بدا على وجه الزوج الكثير من ملامح الغضب والإهانة، ولكنه بدا مستسلماً لها ولأوامرها.

أنصت الجميع لحوار العاجز الصغير والقبطان إذ قال له العاجز الصغير: كيف حال الأمواج اليوم؟ فلقد سمعت بأن هناك عاصفة قوية سوف تجتاح البحر ليلاً. رمقه القبطان بابتسامة ساخرة وأردفها بقوله: إن السفينة في يد آمنة ثم إن البحر لا دور له بالمزاح معي، فأنا سيده وأطوعه كما أشاء. وأدار وجهه ناحية السيدة المجنونة بكل كبرياء وغمز لها، فرد العاجز الصغير: ألا تشعر بأنك بكلامك هذا تلغي دور الله، وبغطرستك هذه يمكن أن تقتل كل من على متن هذه السفينة؟

PART OF BOOK

رفع القبطان قبعته ووضعها على الطاولة ثم أشار إلى كل تلك النجوم والإشارات التي تغزو قبعته ثم قال: لا يوجد شيء اسمه الله يا صديقي، فكل هذا كسبته بجهدي وتعبي وتفوقي، وما كان لله الذي تدعي وجوده فضل عليَّ بشيء، ولكن إن كنت تشعر أنك وربك أفضل مني في قيادة السفينة فتفضل حجرة القيادة تنتظركما، أما بالنسبة لكل من على متن السفينة فهم من الرعاع ولا قيمة لحياتهم، فالسفينة مجهزة بقارب نجاة واحد من أفخم ما صنع في العالم ومخصص للأسياد فقط.

ضحكت الزوجة المجنونة بصخب وقالت: لا تبالي بكلام زوجي فهو يتفوه بالكثير من الحماقات، ثم إن ربه نفسه هو الذي أصابه بمرضه وضعفه، ومع ذلك هو خانع له لأنه عبد ضعيف يفتقر إلى حس القيادة ويحتاج دوماً إلى من يقوده، على عكسي أنا وأنت أيها القبطان القوي، فنحن وُجدنا لقيادة جيش القطيع هذا، فكما تعلم فالحياة وجدت على أساس عبد وسيد ونحن أسياد هذا الكون اليوم. ثم اقتربت إلى القبطان ووضعت يدها على يده غير مبالية بوجود زوجها.

رمقهما الزوج بنظرة تشتعل غضباً وكرهاً ثم أشار إلى الحارس الشخصي بأن يسنده للذهاب إلى غرفته.

ضرب والد سلاف كفيه باستنكار ثم قال: قلت لكما إنها مجنونة تماماً.

بعد ثوان من الصمت بادر نذير إلى فتح حديث آخر لتغيير الموضوع وقال: في الحقيقة تبادر إلى ذهني سؤال عن إحدى شعائر المسلمين وأنا أقرأ قصة النبي

محمد، وهي الحج وزيارة الكعبة والتبرك بحجر قديم والدوران حولها ورجم إبليس والسعي بين الصفا والمروة، أحسست ببعض التناقض بأن النبي العظيم الذي دعا إلى مكارم الأخلاق وخلص الناس من العبودية ووضع نظاماً جميلاً تقوم عليه الإنسانية والدول، وبارك مكانة المرأة وأعادها إلى موضعها الصحيح وموقفه من المسيحيين واليهود، وكل الأشياء الأخرى التي قدمها للبشرية والتي تذهل العقول والتي عليها استحق بجدارة لقب أفضل شخصية مؤثرة في العالم على مدى العصور، هو نفسه الذي أمر بتحطيم الأصنام داخل الكعبة، ثم أمر بالطواف حولها والتبرك بالحجر الأسود، أليست هذه الشعيرة تبدو وثنية بعض الشيء، فلا أرى اختلافاً بتحطيم حجر وتقديس حجر مكانه! ونظر إلى سلاف مطالباً إياها بتفسير.

طرق والد سلاف طرقات خفيفة على الطاولة وهو يبتسم ثم قال: أحسنت يا نذير بربط الأمور بهذه الطريقة، وسؤالك يدل على أنك قد قطعت أشواطاً كبيرة في معركة الإيمان، ولكن يجب عليك فهم معنى الوثنية في المقام الأول لكي تستطيع وضعها في مكانها المناسب، فالوثنية هي اعتقاد النفع والضر لغير الله تعالى والتعظيم والتقرب من غير الله، وفي مثالك هذا عن الحجر الأسود ومراسم الحج قد اختلط الأمر عليك، فالمسلمون في كل بقاع الأرض يتخذون الكعبة كاتجاه لهم في صلاتهم ودعائهم، وعليها ترتب وحدة الأمة، أي أنه حين تقام الصلاة فكل المسلمين من كل الجنسيات والأعراق يتجهون إلى جهة واحدة حيث أمرهم الله، وبهذا تكون قد حققت هدفها وهو الاتجاه والوحدة لا العبادة، وأعتقد أنك قرأت في قصة الرسول الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام أنه في زمنه

كان يقف بلال الحبشي فوقها ويؤذن بالناس، وهذا دليل قطعي في زمانهم زمن عبادة الأصنام أنه لا شأن للكعبة في العبادة، ففي النهاية لا أحد يقف فوق صنمه إذا كان يعبده، أما بخصوص دورانهم حولها فهي حركة طبيعية ترجع إلى حال كل شيء مخلوق في الحياة، فكل الأشياء تدور حول مركزها ابتداءً من أصغر الذرات إلى أكبر ما تستطيع أن تشاهده وهو الشمس، فالصغير يطوف دوماً حول الكبير، والكعبة هي مركز الأرض وموقعها هذا لم يأت عن عبث، وفي النهاية الكون كله يدور حول شيء واحد وهو الخالق الواحد العظيم، وهي تذكير بوحدانية الخالق جل جلاله، ورجم إبليس ما هو إلا مقام رمزي وضع هناك لتذكير الناس بأنه هو العدو الأزلي للإنسان، والسعي بين الصفا والمروة ناجم عن قصة هاجر وابنها عندما انقطعت بها السبل وناجت ربها، وسعت بين الجبلين حتى أذن الله بتفجر الماء من الأرض، وبذلك تذكير للمؤمنين بأن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل، أي لا بد من السعي لتحقيق النجاح واستمرارية الحياة، وفي النهاية إنه أمر الله، فعلينا إطاعته ولكن حاشاه أن يكون أمره غير مفسر بأفضل وأجل التفاسير حكمة وخيراً للإنسان، وحتى أن الرسول قبّل الحجر للتقرب لله وأصبح بعده جزءاً من الطقوس، وقالها عمر بن الخطاب علناً إن هذا الحجر الأسود لا يضر ولا ينفع وفقط لأن الرسول قبله أقبله، ومع ذلك فإن هذا الحجر وهذه البقعة من الأرض مقدسة لأنها كانت مركزاً للحج والتقرب من الله منذ زمان إبراهيم وما قبله، وعلى ذلك بنيت الشعائر والطقوس.

أثار إعجابي المنطق السليم الذي كان والد سلاف يطرح به فكرته، بل وأقنعني

ART_OF_BOOK
©ART_OF_BOOK

بشدة ولكن كنت أتوقع الإجابة من سلاف. يبدو أنها تحب أسئلة التحديات أكثر، ما كان مني إلا أن أشركها بواحد منها فقلت: هذا جواب مثير للاهتمام يا عمي، والآن بدت الأمور مختلفة فلم أتوقع غير ذلك، وحسبت منذ البداية بأنني أنا من لم يفهم مبدأ هذه الشعيرة الكبيرة في الإسلام، وأصبح واضحاً لي ذلك بشرحك المفيد والمقنع.

والآن ـ يا سلاف ـ لنقل إنه طلب منك تقييم حالة إيمان شخص ما وتقديره ووضعه بالخانة المناسبة لإيمانه اجتماعياً، أي أن تقولي في تقييمك ما هو دينه ولمن ولاؤه وما أصل اعتقاده وما هي الجوانب التي تنقصه، لكي يصل إلى الحقيقة الكاملة، فماذا ستكون أسئلتك لهذا الشخص لتضعي التقييم الصحيح؟

ولنسهل الأمر، ضعيني أنا تحت تجربتك واطرحي أسئلتك مباشرة من دون تردد، مع عدم وضع اعتبار للمشاعر كحالة طبيب يعاين مريضاً.

يبدو أني أثرت اهتمامها فبدت متشوقة لقواعد هذه اللعبة وبدأت بتغيير موضع جلستها لتجلس أمامي مباشرة، وتناولت قلماً ودفتراً صغيراً من حقيبتها الصغيرة، وما كان من والدها إلا أن يراقب والابتسامة تملأ وجهه وأردفها بتعليق لطيف قائلاً: لقد وقعت في اليد التي لا ترحم. ثم بدأت سلاف.

ـ قل لي ـ يا نذير ـ إلى من تشتكي عندما تضيق بك حال الدنيا وتكون وحيداً؟

ـ الله.

ـ وهل الله يتجسد بإنسان أو بصنم؟

PART OF BOOK

ـ كلا.

ـ هل الله الذي ذكرته له ابن؟ أو هل هو جزء من ثلاثة؟

ـ كلا، الله هو واحد وليس له مثيل وليس له أولاد وليس جزءاً من شيء، هو الله فقط.

ـ إذاً أنت تؤمن بالله الواحد الأحد ولا تشرك به أي شيء، هذه نقطة أولى.

ـ هل تؤمن بوجود آخرة وحساب وبعدها جنة ونار؟

ـ نعم أؤمن بذلك من صميم قلبي، فبعد ما شاهدت من ظلم وطغيان وقتل ووحشية لا بد أن يكون هناك آخرة، ويحاسب كل امرئ بما فعل في الحياة وإلا لكانت الحياة ضرباً من العبث.

ـ جميل جداً إلى هنا نستطيع القول بأنك تحمل تذكرة الدخول إلى الإسلام، وأنك كحال نوح ويوسف وعيسى والحواريين والجن، فأنت يجب أن تعلم أن الإسلام شيء والإيمان شيء آخر، فالإسلام هو شيء فطري أما الإيمان فهو تكليف لأنك أنت من تختار إيمانك، فعلى سبيل المثال: الله هو رب الجميع شئنا أم أبينا، ولكن الإيمان به هو شيء اختياري، وكذلك هو الحال مع اليوم الآخر؛ فهو آت لا محالة إن آمنت به أم لم تؤمن، وبالتالي إلى الآن أنت مسلم لله لإيمانك بالله الواحد الأحد واليوم الآخر وتسير على منهج التوحيد، وعلينا الآن معرفة إن كنت تعمل أشياء صالحة أم طالحة في الحياة.

@PART OF_BOOK

- هل شاركت في حياتك بقتل أو إيذاء إنسان؟

- كلا.

شعرت سلاف بالارتياح الكبير لهذه الأجوبة الجميلة التي تقدم بها نذير، وحاولت استغلال هذه الفرصة لمعرفته أكثر وضمان ما يجول في رأسها من وساوس، فوجهت سؤالها التالي إليه بذات الأهمية عن سؤاله بخصوص إيمانه.

ماذا عن الكحول والمخدرات والنساء؟ ووضعت خطين شفهيين تحت كلمة النساء فشددت عليها وزمت شفتيها.

انتبه نذير لما تحاول سلاف فعله ولكنه لم يبالِ، فهو يريد طمأنتها بالحقيقة ولا شيء سواها. لم أتناولها في حياتي في حال عدم حساب أقراص المنوم لأسباب مرضية، وكان موقفي واضحاً بالنسبة للكحول بعد ما رأيت ما تفعله بالناس من أذى، أما بالنسبة للمخدرات فهي من اختصاص دراستي، فأعرف كل مساوئها العلمية وآفاتها الجسدية وتأثيرها على مخ الإنسان وحياته، بل وأؤمن أن فيها يصبح الإنسان عبداً لها وبها يشرك بعبادة الله، وبالنسبة للنساء فأنا بتول تماماً، فلم يكن أحد مهتماً بنذير الشؤم المتلعثم، وعندما كبرت كنت مخلصاً لإيمان. احمر وجه نذير فهو لم يقبل على ذكرها سابقاً.

ضحكت سلاف وقالت بشقاء: إذاً كنت عاشقاً... وأين هي سعيدة الحظ الآن؟

ابتسم نذير بحزن وروى لهما قصة إيمان باختصار شديد، وأضاف بأنها لم تكن مهتمة بالدين أبداً ولم تكن تحدثني عنه، ولكن حياتها كانت متعلقة بالعادات

@ART_OF_BOOK

والتقاليد وثرثرة الأهالي، وصمت لحظة ثم قال: إنها ماضٍ بالنسبة لي الآن فهي من خانت العهد.

أعجبت سلاف كثيراً بشخصية نذير وكيفية تقبله للوقائع، بل ما أثار إعجابها إخلاصه بالرغم من كل الإغراءات الموجودة خاصةً في أوروبا.

ـ ماذا عن والديك، هل أنت بار بهما؟

ـ أمي نعم كنت باراً بها، فهي حبيبتي الأولى وتعلمين أنها توفيت، أما أبي فلا... أنا لا أحبه وإنه أحد خصومي في يوم الحساب.

سجلت في دفترها كلمة وأكملت: ما رأيك بنوح وإبراهيم وإسماعيل ولوط ويعقوب ويوسف وعيسى ابن مريم ومحمد بن عبد الله وبرسالتهم؟

ـ أقول إنهم أنبياء من عند الله ويحملون الخير ويبشرون بعبادة الله وحده سبحانه لا شريك له، ورسالتهم سامية لكل البشر، وكل الخير الذي جاء في تعاليمهم هو من عند الله، وكل الشر المنتشر في تعاليمهم هو تحريف من البشر ومن الشيطان نفسه لكي يضلهم عن عبادة الله، وأؤمن بأنه ما جاء الأنبياء إلا ليصححوا أخطاء وانحرافات الناس التي ابتدعوها على الله ورسله.

فرحت سلاف بهذه الإجابة وكأنها تعلم النهاية وكان والدها مبتسماً منصتاً لهما متأملاً كيف يتحدثان إلى بعضهما برقي وانسجام، ثم قال والد سلاف: إذاً ما تقييمك الآن ـ يا سلاف ـ لمريضك، هل هنالك أمل؟

©ART OF BOOK

احمر وجه سلاف فهي فهمت ما يلمح له والدها ثم قالت لأبيها: بل هناك كل الأمل. ثم أزاحت نظرها وأردفت: سأقول لك ـ يا نذير ـ إنك بتصنيف كل الأديان والأعراف أنت مسلم مؤمن، وتلك هي المرادفات الحقيقية لوصف حالتك، ولكن يتبقى عليك تقبل ذلك وإشهاره على العلن دون خوف أو تردد.

قال نذير: وكيف يكون ذلك، فها أنا قد بحت بكل مكنونات صدري لكما والله يعلم بذلك!

قالت سلاف: بات الموضوع بسيطاً، فكل ما عليك هو النطق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً عبد الله ورسوله، ومن ثم البدء بتعلم الشعائر كالصلاة والصيام والزكاة وتلاوة القرآن، وإنك بحاجة لمعلم جيد كي لا تضل الطريق ثانية.

نظر والد سلاف بتشوق ثم قال: إن الإقدام على فعل مثل هذا الشيء هو موقف كبير ويتطلب شجاعة وجرأة قوية.

نذير: نعم هذا صحيح، ولطالما علمت بأن هذه اللحظة قادمة لا محالة، ولطالما آمنت بنبوءة أمي التي أخبرتني بها وهي على فراش الموت، ولكن هناك جزء مفقود. صمت نذير وتذكر نبوءة والدته بأن العُزَير سوف يكون مُخلصه ومُنطقه، وعلى هذا الأساس وتكريماً له سوف يسمي ابنه باسمه. ثم قال بينه وبين نفسه أين العُزير من هذا!

أقدمت سلاف على قطع صمته قائلةً: هل لنا أن نعرف ما هي نبوءتها إن أمكن

@ART OF_BOOK

يا نذير؟

نعم بالطبع، فإن أمي وهي على فراش الموت نادتني ونطقت بجملتين ثم فارقت الحياة، قالت إن العُزير...

***

ART_OF_BOOK
Page الحشاء على اسمعيه ١٦٠ / ١٨٨
©ART OF BOOK

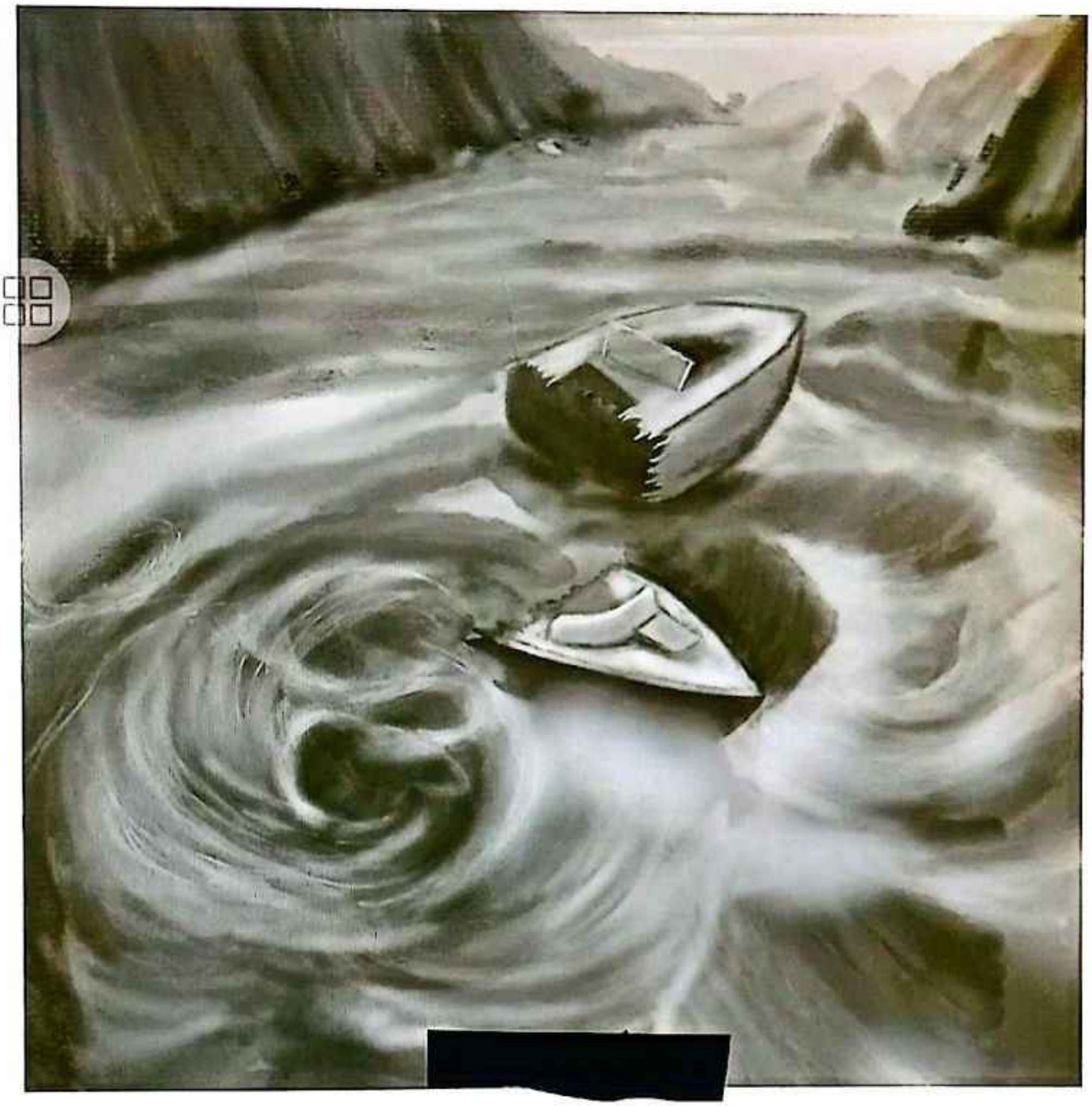

دوامات الله

سُمع صوت ارتطام قوي إذ مالت السفينة إلى جانبها الأيمن بقوة كبيرة، ثم عادت إلى موقعها لترتد إلى الجهة الثانية، وعليه تحطمت جميع النوافذ وقُلبت طاولات المطعم رأساً على عقب، وارتفع صراخ الناس بهلع وخوف بعد أن دخل القليل من ماء موجة مباغتة عند ميلان السفينة، إذ ظن الناس أنها النهاية وأن السفينة تغرق، وسقط الناس على الأرض ومنهم من سُحل إلى يمين السفينة بقوة ثم إلى يسارها عند ارتدادها، لا سبيل للمقاومة والتمسك بشيء، فمنهم من قُذف من النوافذ من شدة الميلان ومنهم من تمسك بالحواف وبدا نصفه للخارج، ومنهم من فقد الوعي نتيجة الاصطدام بطاولة أو حائط أو شخص، إلى أن هدأت السفينة واستقرت قليلاً، لكن الصراخ والخوف لم يهدأ أبداً إذ بدأ الجميع بالبحث عن أولادهم وعائلتهم بعد أن رمتهم الضربة وبعثرتهم في كل مكان.

فتح نذير عينيه ليشاهد المأساة نفسها تتكرر للمرة الثانية، كل شيء قُلب رأساً على عقب، زجاج محطم وأثاث مكسر وصراخ الأطفال والنساء، وفوقه رجل لا يعرفه مصاب بكدمة في رأسه ينزف منها وهو غائب عن الوعي، ثم صفير وطنين في أذنيه يكاد لا يفهم شيئاً من الذي حدث. جلس وأزاح الرجل عنه وحاول أن يوقظه لكن الرجل لم يستجب، وما هي إلا ثوان حتى جاءت صديقة الرجل لتصرخ بصوت يشق الأذنين ليطغى على طنين أذني نذير ويوقظه من الصدمة، ثم التفت إليها وقال: اطمئني هو بخير فجرحه سطحي وهو غائب عن الوعي، حاولي أن تحضري الماء فقط. وفعلاً وجدت عبوة بجانبهم ملقاة على الأرض وما إن نثر نذير قليلاً من الماء على وجه الرجل حتى استيقظ مرعوباً، فضمته صديقته وتأثر نذير

ART_OF_BOOK
©ART_OF_BOOK

كثيراً وتذكر حين دخلت عليه إيمان عندما استيقظ في المستشفى، ودمعت عيناه فرحاً ثم انقلبت أفكاره في لحظة وأصبح يصرخ بجنون.

سلاف... سلاف أين أنت؟ وبدأ يركض يفتش بين الناس عنها ويصرخ وينادي بأعلى صوته ودموعه تملأ وجهه ويقول: لا يا إلهي، أرجوك لا ليس اليوم. ثم سمع صوتاً يعرفه من بعيد ينادي باسمه فركض تجاهه، ها هي سلاف تلوح بيدها بالقرب من والدها وتقول: نذير، نحن هنا نحن بخير. وما وصل إليهما إلا وأنفاسه كانت تتقطع، ثم نظر في عيني سلاف والدمع يأكل وجنتيه ثم قال: الحمد لله إنك بخير سلاف، الحمد لله، خفت عليك كثيراً ولم أفهم ما الذي حصل. اقترب من والدها وضمه قليلاً وقبل رأسه وقال: الحمد لله على سلامتك عمي، هل أنت بخير؟

رد والد سلاف بصوت منخفض: نعم الحمد لله، ولكن أعتقد أن يدي قد أصيبت بأذى فأنا أشعر بألم رهيب فيها.

وبعد أن فحصها نذير خلع قميصه وجعل منه حمالة يد وربطها إلى عنق الشائب ثم قال: إنها في الغالب مكسورة يا عمي، وعليك أن تضعها في الحمالة ولا تحركها أبداً، وسأجلب لك بعض المسكنات لتهدأ قليلاً.

كانت سلاف في هذه الأثناء تمعن النظر في نذير وتصرفاته وحركاته التي أبداها تجاهها ولهفته تجاه والدها، أخرجت منديلاً وقالت: امسح وجهك يا نذير، واشرب الماء واهدأ قليلاً لكي أفسر لك الذي حصل.

شرب نذير الماء ومسح وجهه وعيناه لا تفارق سلاف، فكم تمنى أن يحتضنها بقوة حتى يتبدد كل الخوف الذي اعتراه، ويمسك بيدها ليقبلها ويقول لها أنا بجانبك لا تخافي.

قال نذير: يا للهول! انظروا حولكم إنها فوضى لا مثيل لها، فلقد تحطم كل شيء، ويوجد الكثير من الأشخاص المفقودين الذين سقطوا من النوافذ إثر الضربة، وهناك الكثير من الإصابات البالغة في كل مكان، يجب علينا مساعدتهم، ولكن في البداية يجب أن نعلم ما الذي حصل، وماذا الآن هل السفينة تغرق؟ فإن صوت الإنذار بالإخلاء لم يهدأ إلى الآن.

قالت سلاف: عندما هدأت السفينة قليلاً رأيت القبطان يساعد المرأة المجنونة على النهوض، ويقول لها بأن عليهم التوجه إلى قمرة القيادة، فهو على علم بأن إعصاراً درجته خفيفة سوف يجتاح البحر، ولكن يبدو أنه فاق التوقعات وخرج عن السيطرة إلى أن تشكلت دوامات مائية كبيرة قادرة على ابتلاع السفينة بأكملها، وبذلك عليهم إبلاغ خفر السواحل ليأتوا بفرق الإنقاذ ثم اختفوا بسرعة.

ثوان قليلة ثم خفتت أصوت جرس الإنذار وظهر صوت من المايكرفون.

هنا قبطان السفينة، لقد تعرضت سفينتنا العظيمة إلى الوقوع في دوامة مائية نتيجة الإعصار وقد تجاوزناها بسلام الآن، ولكنني كما أرى الآن لدينا دوامة أخرى على بعد عشرين دقيقة تقريباً، وفي هذه الأثناء أتمنى من الجميع التجمع في صالة المطعم في الطابق الثالث، والتشبث بأي عامود أو حافة ثقيلة والابتعاد عن

@ART OF_BOOK

النوافذ، وسيتم توزيع أطواق نجاة على الجميع في حال بدأت السفينة بالغرق في البحر، وبدوري أنا أعلمت خفر السواحل، وطائرات الإنقاذ في طريقها إلينا ولكن يحتاجون إلى نصف ساعة للوصول على أقرب تقدير، وعليه يجب علينا التشبث وأخذ الحيطة والحذر. انتهى

ثم عاد جرس الإنذار يدق من جديد وعاد الخوف والهلع يسيطر على عقول الناس وقراراتهم، إذ بدأ الناس بالتوافد إلى صالة المطعم المحطمة وجاء فريق أمن السفينة المكون من أربعة أفراد ينقصهم الرجل الفظ، وبدؤوا بتوزيع بطانيات للحماية من البرد الذي يدخل من النوافذ المحطمة، ومعها طوق نجاة صغير ينفخ بثلاث نفخات متقطعة ومزود بصفارة سوداء تبشر بالموت القريب.

استطاع نذير وسلاف ووالدها الحصول على مكان في زاوية الصالة تحت منضدة متوسطة الحجم، وكانت مثبتة جيداً بدعائم السفينة وبعيدة عن جميع النوافذ والمخارج التي يمكن للمرء الطيران من خلالها إثر الضربة القادمة، ونفخ نذير أطواق النجاة ووضعها بالقرب من المنضدة، وبعدها بثوان قليلة جاءت العائلة البوذية واستأذنوا بلطف للجلوس بالقرب منهم على يمينهم، فموقعهم يكاد يكون أكثر مواقع الصالة استراتيجية وأماناً، وما إن استقروا بالجلوس حتى أخرج والد الطفل لباس ابنه البرتقالي وطلب منه أن يلبسه ليقيم بهم صلاة، وفي وحين ارتدائه للعباءة قامت الأم بإحضار قطعة قماش كبيرة ومدتها على الأرض، ووضعت في زواياها الأربع شموعاً صغيرة كانت تحملها في حقيبتها، وأخرجت منها تمثالًا صغيراً شبه عار تماماً يجلس جلسة اللوتس بكل استرخاء وتبين أنه تمثال بوذا، وبعد أن انتهى

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

طفلها من لبس العباءة جلس في المنتصف تماماً كجلسة الصنم، فوضعت الأم التمثال بين يديه وأشعلت الشموع ثم أغمض الطفل عينيه وبدأ يتمتم بلغة غريبة ولكن بصوت هادئ وواثق، وركع والداه مقابلين له ولصنمه وأقبلا يقبلان صنمهم وأرجل ابنهما ثم يعودان راكعين إلى الوراء، ويتمتمان بكلمات غريبة، ويعيدان الكرة كل بضع ثوان، ثم رفع الوالد رأسه وقال: ربي بوذا، تقبل منا صلاتنا واجعل انتقال أرواحنا هذه من أجسادنا سالماً، وسامحنا لتقصيرنا لعدم تقديمنا قرباناً يليق بك، سامحنا يا ربنا.

وعلى يسارهم كان قد استقر السكارى بعد أن قام الخنزير ذو العين الواحدة بجرّ صديقه المقعد وإحضار زجاجة من الكحول الكبيرة، وبدآ باحتساء نخب فقدانهما صديقهما ذا اليد الواحدة، ثم أتبعاه بنخب الموت القادم وهما يتمتمان ما سمياه أغنية النهاية، ثم ظهر لهما صديقهما ذو اليد الواحدة وجيوبه ممتلئة تفيض بالنقود وفي يده الوحيدة حقيبة صغيرة، رماها في أحضان صديقه المقعد ثم قال له: خذها أيها الوغد، فإن اليوم هو يوم سعدك، فإنك كما وعدتك ـ يا صديقي الأحمق ـ لن تموت إلا وأنت غني. واقترب ذو العين الواحدة وحضنه وقال له: شربنا لتونا نخب موتك فإني بحثت عنك في كل مكان في الصالة ولم أجدك، وتوقعنا في النهاية أنك قذفت إلى خارج السفينة من إحدى النوافذ. وفي هذه الأثناء فتح صديقه المقعد الحقيبة الصغيرة فوجد فيها الكثير من الذهب والحلي وأطلق ضحكات عالية وقال لهما: دعونا نشرب نخب عودتك. وفعلاً شربوا نخب عودته ثم قال له: من أين لك كل هذا؟ فرد عليهما وهو يفرغ جيوبه المليئة بالأموال من كل الأصناف

@ART OF_BOOK

والفئات: إني عندما استيقظت وجدت نفسي مرميٌّ وبجانبي سيدة عجوز ترتدي عقداً كبيراً من الذهب وعليه قلادة، فسرقته من رقبتها إذ كان يبدو عليها أنها ماتت من أثر الضربة، ثم قلت في نفسي إنه الوقت المناسب للقيام بعمليات سطو هنا وهناك على كل غرف السفينة الفي آي بي، فهم يمتلكون خزائن يحفظون فيها ثرواتهم، وكما تعلم أني الخبير هنا في فتح الخزائن الدسمة، وقد تجولت بين خمس غرف فقط وحصلت على حقيبة مليئة بالذهب وملأت جيوبي بالعملات المختلفة. فضحكوا بصوت عال ثم قال ذو العين الواحدة: إذاً دعنا نشرب نخب خستك ودهائك يا صديقي، ولنفكر في طريقة للنجاة من هنا لعلنا نشتري جزيرة بعيدة وأطناناً من الشراب ونثمل عليها ونضاجع كل فتيات الجزيرة حتى نموت موتة جميلة. دُقت الكؤوس وشربوا نخب الخسة ثم أردف ذو اليد الواحدة قائلً: يبدو أننا سوف نموت هنا ـ يا أصدقائي ـ على متن هذه السفينة، فلقد تفقدت جميع المخارج فلم أر قوارب نجاة معلقة على السفينة، ثم إن هناك دوامات صغيرة في البحر تبتلع السفن الصغيرة بكل سهولة، ولكن يبدو أننا نتجه إلى دوامة كبيرة تتسع لمثل هذه السفينة الضخمة. حَزِنَ ذو العين الواحدة لجواب صديقه بأنه لا منفذ لهم ثم أطرق رأسه إلى الزجاجة ووضع قطعاً من الذهب في الكؤوس وسكب فوقها وقالَ: اقترح عليكم نخب النهاية الذهبية مع أنه في نفسي شيء أخير قبل أن أموت، وأشار بنظره إلى سلاف ثم رفع كأسه وقال «تشيرس»: وردوا بتخمة وثمالة وراءه: تشيرس.

أدار نذير رأسه نحو سلاف ثم قال: بقي لدينا حوالي خمس عشرة دقيقة على

أقل تقدير للوصول إلى الدوامة الثانية، ولكن يجب علي الذهاب لغرفتي لإحضار شيء ثمين على قلبي، فأنا أريد الموت وأنا أحتضنه وإن نجوت فأريد النجاة معه.

نظر والد سلاف إليه باستهجان وقال: ما هذا الشيء الثمين الذي تخاطر بحياتك من أجله يا نذير، هذا جنون، فالوضع لا يبشر بخير وإن أصابك مكروه ـ لا قدر الله ـ فلن ينفعك بشيء!

قال نذير: إنه عقد ذهبي كان لأمي وهو لم يفارقني طوال حياتي، وهو الشيء الوحيد المتبقي لي منها، والشيء الوحيد الذي أحضرته معي في رحلتي إلى أوروبا، وكنت قد قطعت عهداً لأمي بأن أحتفظ به إلى أن أتزوج وأهديه لزوجتي كهدية زواجنا، ومن المستحيل أن أنكث بعهد أمي ثم أنني في نفس الوقت أريد إحضار بعض المسكنات لك يا عمي، فإني أراك تتلوى من الألم.

قال والد سلاف بحزم: على مهلك يا ولدي، صحيح أني متألم ولكن ليس لدرجة أن تخاطر بحياتك من أجل حبوب المسكن، يمكن أن نموت قبل أن تأخذ مفعولها في الأحشاء، ما رأيك يا سلاف؟

سلاف: أقول إنه ضرب من الجنون يا نذير، ولن نسمح لك بذلك إلا إذا رافقتك أنا إلى غرفتي، فأنا بحاجة إلى تبديل ملابسي بعد أن امتلأت ببقايا الطعام والشراب المنسكب، ثم إني بحاجة ماسة للدخول إلى الحمام بعد هذه الرعبة فأنا لا أستطيع المقاومة نصف ساعة أخرى، ثم إنني في نفس الوقت سأحضر أدويتك يا أبي.

@ART OF_BOOK

عبس والد سلاف وقال: إن قراركما هذا يمكنه أن يفطر قلبي، ولكنني سلمتكما لله هو حاميكما، وإن كان ولا بد فاذهبا بسرعة، لديكما عشر دقائق للعودة والجلوس بقربي لنرى إن كانت هذه السفينة سوف تصمد.

انطلق نذير برفقته سلاف بخطوات سريعة وجريئة إلى خارج المطعم متجهين إلى طابق الغرف الذي يحتل الجزء العلوي من السفينة، وكان عليهما استعمال السلالم الخارجية للوصول إلى هناك؛ فلقد توقفت المصاعد الكهربائية، وكل المصابيح تعمل الآن على منظومة الطوارئ، وقفت سلاف في منتصف السلالم ثم قالت بدهشة: انظر ـ يا نذير ـ إلى البحر على الجانب الأيمن. التفت نذير وألقى نظرة سريعة كعادته وقال: إن هذا قارب فخم بالقرب من السفينة بل يبدو أنه خرج منها، ولكنه صغير ولن يصمد أمام الدوامات التي نراها أمامنا إن لم يكن محركه ضخماً وقادراً على الانطلاق بسرعة لتجاوز الدوامات.

بدأ يراقب بصمت ثم كسرت سلاف صمته وقالت: أتتذكر حديث القبطان عن قاربه الفخم في حالات الطوارئ والمجهز بأفخم المعدات وأحدثها.

تذكر نذير ذلك الحديث وقال بسخرية: نعم نعم أتذكر، ولكن يبدو أنه قد تعطل، انظَري فهو واقف بلا حراك في مياه البحر العميقة ويبدو أنه ينجذب بقوة نحو الدوامة، دعينا نرى مدى براعة القبطان المتغطرس وقوة قاربه المخصص للأسياد أمام قوة الله.

سمعنا صوتاً من مقدمة السفينة يصرخ في مكبر الصوت وعندما أمعنا النظر

@ART OF_BOOK

علمنا أنه الرجل المسكين زوج المرأة المجنونة الإقطاعية يوجه كلمه للقارب الراقد في البحر.

- إن جهنم تناديكم إن جهنم تناديكم، أتمنى لكم إقامة دائمة وموفقة أيها الأسياد الأغبياء، فلقد قطّعت كل أشرطة المحرك وخربت حجرة القيادة أيها المغفلون. ورفع يده ملوحاً بإصبعه الوسطى وعلى وجهه ابتسامة النصر.

بدأت الدوامة تجذب القارب الفخم الحديث أكثر فأكثر حتى علت أصوات الأسياد، وأشدها كان صوت زوجته وهي تناجيه وتقول له: أيّها العبد الحقير، تعال لمساعدتنا. فما كان من الزوج إلا أن ضحك أكثر فأكثر ملوحاً بإصبعه بالوداع لهما، وضربت الدوامة مقدمة القارب وقسمته إلى نصفين، وابتلعت كل قسم على حدة وكأنها تستمتع بوجبة عشاء، فالقسم الأول كان الوجبة الرئيسة، فقد كان فيه القبطان المتغطرس ملك البحر في قمرته، والقسم الثاني كان للتحلية، ففيه الأسياد والمرأة المجنونة الإقطاعية، وبعدها اختفى القارب في البحر الهائج العميق واختفت أصواتهم فيه إلى الأبد.

حدّق نذير بسلاف التي كانت بحالة صدمة من هول المنظر، فهي لم تشهد أشياء كهذه من قبل بل ولم تشهد موت أحد من قبل، ثم أمسك يدها بقوة وقال لها: هيا يا سلاف، يكاد الوقت ينفد منا، ثم إن عدالة الله نافذة شاء من شاء وأبى من أبى، فهم من تخلّوا عن السفينة المحملة بما يقارب ثلاثمئة راكب ومسؤولية إنقاذهم تقع على عاتقهم، ولا تنسي أنهم هم من تحدّوا الله فلينالوا جزاءهم.

وصل نذير إلى باب غرفته فقالت له سلاف: سوف أذهب إلى غرفتي بسرعة للدخول إلى الحمام وتبديل ملابسي وأحضر دواء والدي، وآتيك على الفور فنلتقي هنا تماماً على باب غرفتك.

أومأ نذير برأسه وقال لها: لديك ثلاث دقائق فقط. ودخل إلى غرفته مسرعاً ليجد أن غرفته مقلوبة على بعضها وبالكاد وجد عِقدَ والدته الغالي على قلبه فقبله، وسمع صراخاً عالياً يطلب النجدة ولحقه صراخ طفل ينادي كذلك أيضاً، فاتضح لنذير أن الصوت قادم من غرفة الرجل الفظ وهو نفس صوت الصراخ الذي سمعه في المرة السابقة، فما كان من نذير إلا أن وضع العقد في جيبه وذهب بسرعة ليطرق على باب الغرفة التي بجانبه، فسمع صوت المرأة في الداخل تقول: اكسر الباب، فأنا مقيدة في الداخل وابني لا يستطيع الوصول إلى القفل ليفتح الباب، أرجوك ساعدنا. وفقد نذير تركيزه إذ تذكر والدته وتذكر نفسه فاستجمع قواه كلها وضرب على الباب بقدمه حتى حطمه ودخل إليهم فوجد الطفل يقف إلى جانب جثة الرجل الفظ وهي مغطاة بالدم، والطفل فاقد القدرة على الكلام وأشار إلى والدته التي كانت مقيدة بطرف السرير وثيابها ممزقة من كثرة الضرب بالسوط، ففك وثاقها بصعوبة ثم قال: ما الذي حدث لكما؟

اقتربت المرأة من ابنها فضمته إلى صدرها بقوة كبيرة وبكت ثم قالت بصوت حزين منكسر: عندما اهتزت السفينة وقرع جرس الإنذار استيقظ زوجي مثل المجنون، وانهال بالضرب على ابني لأنه كان يصرخ ويبكي بصوت عال، وجئت لأحمل ابني وأحميه منه فما كان منه إلا أن قيدني بحافة السرير، وبدأ يجلدني

@ART OF BOOK

بالسوط حتى مزق ثيابي وكسر لي يدي، وجلب سكينه ليشوه وجهي، وفجأة سمعت صوت إطلاق نار وأصيب في ظهره فخر راكعاً على ركبتيه، وظهر طفلي الصغير خلفه حاملاً مسدس والده الذي كان يضعه في الصندوق الصغير على جانب السرير الذي انكسر إثر ارتطامه بالحائط، فأحضره وأطلق منه باتجاه والده، وقال لي قبل أن يموت: لقد قلت لك ـ أيتها المرأة اللعينة ـ بأن ابنك لديه عقدة أوديب وها هو يسير على خطى أوديب نفسه الذي فعلها من قبله وقتل والده كي يحظى بأمه وحده.

ثم ذكرته بمقولة نابليون بأن الطبع هو القدر، وأن طبعه الحقير هو الذي قتله، وأن ابني سليم تماماً بل إن ما فعله هو رد فعل طبيعي فطري لكل إنسان عندما يرى والدته تقتل أمامه، ثم بقي ينزف على الأرض حتى فارقت روحه الفظة جسده، ولم يستطع طفلي الصغير أن يفك وثاقي فهو مربوط بإحكام.

استوعب نذير الصدمة وقال لهما بأن عليهم التوجه على الفور إلى صالة المطعم، فقد بقي أقل من خمس دقائق على الاصطدام بدوامة كبيرة قادرة على تدمير السفينة، وبعد أن أرسلهما خارج الغرفة وفي طريقه هو أيضاً إلى الخارج لإغلاق باب الغرفة لم يستطع نذير بأن يمسك نفسه، فأدار وجهه إلى جثة الرجل الفظ وبصق عليها وقال: تستحق أكثر من ذلك أيها النذل الضعيف. وأغلق باب الغرفة بقوة وكأن نيران قلبه قد أُطفئت عندما ظن أنه رأى العدالة.

لكن مهلاً التفت حواليه في الممر القاطع للغرف: أين هي سلاف؟ لقد مر وقت طويل على ذهابها. واتجه بطريقه مسرعاً إلى غرفتها ليتفقدها.

@ART OF_BOOK

في هذه الأثناء كانت امرأة الرجل الفظ قد وصلت إلى قاعة الطعام والتقت برجال الأمن، وتجمع الجميع حولها ليعلموا إن كان هناك جديد، فشرحت لهم القصة وعن الذي حصل وقالت إن شاباً شجاعاً دخل عليها وأنقذهما، فسألها والد سلاف: ما شكله؟ فأعطته تفاصيل نذير وعندها أيقن الشائب أن هناك أمراً ما قد حصل معهما، فقد تأخرا كثيراً بالعودة، بل لماذا لم يعودا معاً مع المرأة وابنها. وفي هذه الأثناء سمع صوت طائرات هليكوبتر تحوم فوق السفينة ورمت الحبال على شرفة المطعم، وبدأ المسعفون والمنقذون بالنزول ليطمئنوا الناس بأن العاصفة قد هدأت، وأن الدوامات التي تبقت في البحر صغيرة ولا يمكن أن تؤثر على سفينة بمثل هذا الكبر، وحينها ظهر السيد المسكين زوج المرأة الإقطاعية مع حارسيه الشخصيين وروى لهم ما حدث، وكيف كان القبطان المتغطرس حقيراً ولا يحمل مسؤولية شيء، بل قرر الهرب وأخذ معه الأسياد ومالكة السفينة التي هي زوجته في القارب الوحيد للإنقاذ، بل وأطلق إشاعة أن السفينة سوف تواجه دوامة أكبر بعد وقت قليل ليتجمع الناس في مكان بعيد عن نظره، ليستطيع تجميع الأسياد والهرب بهم دون أن يُكشف، ولكن المحرك لم يعمل معهم في الماء وابتلعتهم الدوامات في البحر.

سمع ذو اليد الواحدة والرجل المقعد بهذا الحديث فخافا كثيراً أن يكشفا فعلتهما الخسيسة، اقترب رجال الأمن واعتقلوهما بعد أن اشتكى عليهما أصحاب الأموال والذهب التي سرقاها، فطلبا من رجال الأمن أن يشربا نخباً أخيراً ثم يعترفا بكل جرائمهما التي ارتكباها خلال حياتهما، وفعلاً اقترح ذو اليد الواحدة نخب

@ART_OF_BOOK

حياة السجن القادمة وقال: لعلها تكون النهاية. ودق كأسه الرجل المقعد وقال بل: إنها النهاية. ثم اعترفا بكل شيء وأُعيدت المستحقات لأصحابها ولكنهم لم يجدوا الرجل الخنزير ذا العين الواحدة مع أنهما اعترفا عليه أيضاً، بل أصرا أنه هو العقل المدبر لكل خططهم فهو قائد الكتيبة.

أما والدا الطفل المعجزة الذي انتقلت إليه روح الراهب العظيم فلقد ركعا شاكرين ربهما وقبّل صنمه ثم قبّل قدمي ولدهما وقالا أنه هو من درء الشر عنهم وأنقذهم، بل أصرت الأم على أنها رسالة واضحة بأن ابنهما هو الراهب العظيم حقاً، وسوف يرسلنه إلى المعبد في سريلانكا على الفور ليتبرك قومه به ويحميهم من الشرور في هذه الدنيا ويدلهم على طريق الصواب، أما الأب فذكرهم بالقربان الذي قدمه جد جده لآلهة حين ذبح طفله الصغير، وروى بدمائه جدران المعبد القديم لكي تحمي عائلته ويكون لهم من ذريتهم أطفال رهبان مباركون، ووضع على مدخل باب البيت صنماً كبيراً لبوذا طله بالذهب الخالص، وأصبح مزاراً لجميع سكان القرية في بلدهم الأم.

***

@ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

النهاية

طرق نذير باب غرفة سلاف الذي كان مفتوحاً قليلاً، فنادى عليها: سلاف، أنت في الداخل؟ هل انتهيت؟ لم يتبق الكثير، يجب أن نركض يا سلاف.

سلاف، أين أنت؟

سمع أنيناً غريباً من الداخل يتداخل مع طنين جرس الإنذار، ففتح باب الغرفة ووجدها مرمية على الأرض وفوقها الرجل الخنزير ذو العين الواحدة وهو يمزق ثيابها ويضع يده على فمها بعد أن نزع حجابها، وآثار الكدمات على وجهها، فما كان من نذير إلا أن هجم عليه من دون تفكير ليبعده عن سلاف، ولكنه كان يفوقه حجماً وخبرةً في القتال، فهو جندي قديم قوي البدن وكان قد حطم الكثير من الجماجم الصغيرة كجمجمة نذير المسكين، فبادله اللكمات السريعة والقوية على وجهه وجسده حتى وقع نذير على الأرض مستسلماً يكاد يغمى عليه، ثم قام الخنزير وشحطه على أرض الغرفة ليلقيه أمام سلاف ويضع سكيناً على عنقه ويقول لسلاف بأن تخلع ثيابها وإلا سوف يجز عنقه أمامها ثم يغتصبها بقوة ونذير بين يديه يقاوم بما أوتي له من قوة، ولكنه محطم والصورة أمامه ليست واضحة، وكل ما استطاع النطق به قوله: لا تفعلي ذلك، قاومي يا سلاف، قاومي هذا الخنزير. وما كان من الخنزير ذي العين الواحدة إلا أن وضع السكين في كتف نذير الأيسر القريب من قلبه ليظهر جديته لهما، ثم قال لسلاف: إن حبيبك هذا سوف لن يموت بسرعة إلا في حال أزلت السكين من الجرح، ولكن يجب أن تعلمي أني إن أزلتها فسوف ينزف ويموت في غضون عشرين دقيقة، والآن اخلعي ملابسك ـ أيتها العاهرة ـ قبل أن أغير مكان السكين لتستقر في قلبه.

@ART_OF_BOOK

بدأت سلاف بخلع معطفها الذي كانت تلبسه بدم بارد ودموع تغرق السفينة قهراً وغضباً وهي تنظر إلى نذير وهو راكع على ركبتيه يقاوم الموت، ودماؤه بدأت تغطي صدره، ثم اقترب الخنزير منها ليمزق ما تبقى لها من ثيابها فأغمضت عينيها وصرخت: يا الله.

انتزع نذير سكين الموت من كتفه ليزرعها في رقبة الخنزير ذي العين الواحدة، ونزعها من رقبته ليلتفت إليه الخنزير ويداه على رقبته محاولًا إدراك النزيف ليزرع نذير السكين مجدداً في قلبه لينهي عليه.

لتصبح السكين نفسها القاتلة لنذير سكين الرحمة لسلاف.

وقع نذير أرضاً وبدأ الجرح ينزف بغزارة وجاءت سلاف إليه وهي تضع حجابها على جرحه وتضغط عليه وهي تبكي بحرقة وقالت له: لماذا فعلت ذلك يا نذير.

لكن نذير كان عاجزاً عن الكلام والحركة، إذ إن دموع سلاف كانت تبدو له وكأنها ياقوت يلمع من أعماق البحر، وشعرها الذهبي يعزف على وجهه موسيقى الحب والجمال، وهو يكاد يغمى عليه نتيجة النزيف الحاصل له. ولكن سلاف كانت توقظه وتقول له: ابق معي، ابق معي أرجوك يا حبيبي، فليشهد الله أني أحببتك، فليشهد الله أن قلبي فداك بعد أن قدمت روحك فداءً لي يا نذير الخير.

كان نذير يبتسم ويئن يحاول النطق، وبعد جهد جهيد نطق وقال: حلوة. قالت له: ما هي الحلوة يا نذير. وجاهد نذير ليقول: قهوتي...أحبها حلوة.

ابتسمت سلاف بعينين دامعة وغمرته بقوة إلى أن أحست بأنها بدأت تفقده

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK
٢٧٠٥١٩٤٧٩٣

لتسمع صوتاً آتياً من باب الغرفة، نعم إنه أبوها الشائب ومعه رجال الأمن ومسعفون جاؤوا ليفتشوا الطابق بعد أن أصرَّ عليهم بأن أولاده في طابق الغرف، ذهبوا ليحضروا أشياء مهمة ولقد تأخروا في العودة وأصر عليهم بأن مكروهاً ما قد حدث لهم.

اقترب الشائب من فوره ليحتضن سلاف ونظروا إلى جثة الخنزير ذي العين الواحدة، وشرحت سلاف باختصار لوالدها ولرجال الأمن والمسعفين عن الذي حصل، ثم اقترب المسعفون من نذير ليقيموا حالته، فبعد أن ضمدوا جرحه ووضعوه على الحمالة وبدؤوا بحقنه بالكثير من الإبر،

سألتهم سلاف عن حالته فأجابوا بأنهم قد أوقفوا النزيف بشكل مؤقت ولكنه يحتاج إلى مستشفى ونقل دم فوري، ففي غضون ساعة سيفارق الحياة إن لم يُسعف.

أما نذير فلقد سمع بتشويش ما يقوله المسعفون، ولكنه عندما وضع رأسه على الحمالة وقع نظره على حقيبة والد سلاف، فوجد أنه مكتوب على اللائحة الصغيرة التي تعلق على حقائب السفر اسم «عُزَير الله الصادق». فابتسم وهو يحدق بوالد سلاف، وتذكر نبوءة والدته بأن عُزَير مخلصه، عُزَير منطقه، وبدأ يتمتم فاقترب والد سلاف منه وقال: ما الذي تحاول قوله يا نذير؟

قاوم نذير كثيراً وتغلب على ألمه وقال له: ما اسمك أيها الشائب؟

فأجابه: اسمي هو عُزَير الله الصادق. ظهرت ابتسامة على وجه نذير وتمتم بصوت خافت قائلاً: إذن خلصني يا عُزَير، لقنّي الشهادتين. اقتربت سلاف لتمسك بيد نذير

ثم قال والد سلاف: قل ـ يا نذير ـ أشهد أن لا إله الله وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله..

ردد نذير وراءه بصوت خافت متلعثم: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله. ثم نظر إلى سلاف وابتسم بحب عميق، بحب عذري، بحب بريء، بحب صادق بينه وبين الله ونفسه ثم قال: صدقت أمي صدقت أمي. ثم أغمي عليه.

ارتعبت سلاف وبدأت بالبكاء بصوت غريب ثم قالت للمسعفين: هل تستطيعون نقل الدم في الطائرة التي أتيتم بها؟ قالوا: نعم إنها مجهزة بكل الأدوات. قالت: إذاً علينا أن نعرف زمرة دمه. وأخرجت سلاف هاتف نذير من جيبه وحاولت الضغط على زر الطوارئ ليظهر لها اسمه ومعلوماته الشخصية ورقم أخته وزمرة دمه في حالة الطوارئ، وهي نعمة كبيرة لحاملي الهواتف الحديثة الذكية. وعندما علمت سلاف أن زمرة دمه تقبل الأخذ من زمرة دمها حيث زمرة دمها (O)سلبي وهي معط عام،

اقترحت على المسعفين الذين أسرعوا لنقله إلى الطائرة بأنها تستطيع أن تعطيه من دمها على الفور ونقله له في طريقهم إلى المستشفى، ولكنهم قالوا بأن عليهم التأكد من الدم وحالتها الصحية بأنها لا تملك أمراضاً خبيثة في دمها، أكدت لهم بأنها سليمة معافاة، وحتى قالت لهم أنها خطيبته وفي طريقهم إلى ألمانيا للزواج. فما كان منهم إلا الرضوخ لاقتراحها، فصحبوها ووالدها معهم في الطائرة لتبدأ عملية نقل الدم الحية.

@ART_OF_BOOK

***

بعد يومين اثنين من نقل الدم والعناية في المستشفى استفاق نذير من غيبوبته ونظر حوله فوجد نفسه على قيد الحياة، فضغط على الزر الأحمر الموجود على فراشه ليأتي أي أحد من القائمين على صحته في المستشفى، فجاءت الممرضة ومعها كوب من الماء، وسألها نذير عن الذي حصل وقالت له بأنه كاد يفارق الحياة لولا نقل الدم له من خطيبته في الطائرة حتى وصل إلى المستشفى ليتلقى العلاج والعناية، ولكنه دخل في غيبوبة لمدة يومين نتيجة فقده لكمية كبيرة من الدم، فنظر إليها مستغرباً وقال: خطيبتي!

قالت: نعم واسمها سلاف وهي في الغرفة المجاورة، فحالتها كانت سيئة أيضاً عندما قدمت معك إلى المستشفى، فجسدها يحمل كدمات كثيرة ونقل الدم أنهك قواها ولكنها في حال أفضل الآن. ولكن لدي خبر جميل لك إن أختك هنا أيضاً، فإن أردت فسأبلغها أنك بخير فتأتي لزيارتك، لأن الطبيب يحتاج إلى المزيد من الوقت كي يزورك ويطمئن عليك.

هز نذير رأسه وقال: لا بأس أدخليهم.

دقائق قليلة ودخلت أخته ريم لتحتضنه بقوة وقالت له: ما هذا الذي حصل يا نذير؟ تباً لهذا اليوم المشؤوم.

ابتسم نذير وقال: على العكس يا ريم، فبالرغم من كل الأشياء المرعبة والسيئة التي حصلت فإنه كان يوماً جميلاً وتغيرت فيه كل حياتي، فانظري إلي الآن،

الحمد لله أنا على قيد الحياة وتحققت نبوءة أمي وأصبحت مسلماً مؤمناً، وحبيبتي في الغرفة المجاورة تنتظرني حتى أتعافى.

بدت آثار الدهشة على وجه ريم ثم قالت: لا أعلم ولا أفهم شيئاً من الذي تقوله، ولا أبالي أيضاً إن كنت مسلماً أو يهودياً، كل ما أريده أن تكون أنت بخير وسعيداً في حياتك وخياراتك. ثم وضعت هاتفي بالقرب مني على الطاولة معه عقد أمي الجميل وقالت: أراك لاحقاً.

جاء الطبيب ليقوم بالفحوصات اللازمة وبعدها بقليل قال لنذير: أعتقد أنك رجل قوي، فأنت في غضون أسبوع تستطيع مغادرة المشفى معافى تماماً، وأريد القول بأني سمعت من أختك أنك تعرضت لحادث قديم وغيبوبة قديمة، وعلى أثرها أصبت بالتلعثم، ولكن عليك ألا تشعر بالقلق بعد اليوم، فغيبوبتك هذه أعادتك إلى وضعك الطبيعي، أي أن التلعثم أصبح ماضياً وانتهى، ثم إنه سوف يأتي رجال الشرطة لكي يأخذوا أقوالك بخصوص الحادثة، ولكن لا تقلق الكاميرات على السفينة رصدت كل شيء.

جاء العُزير مضمداً يده ويدفع بيده الأخرى سلاف على كرسيها المتحرك، فهي لا طاقة لها بالمشي ولكنها أصرت على أن تأتي لتطمئن على بطلها كما وصفته لأخته ريم ولوالدها ولرجال الشرطة، ودخل غرفة نذير وتقدم العُزير ليقبل جبينه ويشكره على ما فعله لسلاف وقال له بأنه من الآن فصاعداً أصبح لديه ابن بطل واسمه نذير الخير.

@ART_OF_BOOK

أما سلاف فوضعت كوباً من القهوة على جانب سرير نذير وقالت له: تفضل قهوتك أيها البطل؛ فأنت تستحقها حلوة كما تحب.

طلب نذير منهما بأن يقربا من سريره لكي يلتقط لهم صورة سيلفي جماعية لكي تبقى ذكرى للجميع، فرفع هاتفه وبعد أن ضغط على زر التصوير ولمع الفلاش في وجههم راح نذير يتفقد ما التقطته الكاميرا من صورة، جاءه إشعار برسالة على الواتس أب، فضغط عليها عن طريق الغلط، فظهرت صورة شابة جميلة وشعرها طويل وجميل وبين يديها طفل صغير، وفي الأسفل نصٌّ طويل كان على الشكل التالي:

ـ تحية طيبة يا نذير الخير الذي امتلأ قلبي حباً وشوقاً وحنيناً إليك...

لا أعلم من أين أو كيف أبدأ.

القصة بدأت عندما أرغمت على الزواج من ابن عمي قسراً لأن والدي قرر أن يستدين مبلغاً كبيراً من عمي ليغطي مصاريف السفر إلى أوروبا لجميع أفراد العائلة، فاشترط عمي أن أتزوج ابنه الغليظ الذي التحق بالجيش ليدافع عن الوطن، وبالتالي يؤمن لأبي ما طلب، وبالفعل قُدم المبلغ على أنه مهر لي وساقوني إليه كما تساق الشاة للذبح، وبالتالي أصبحت أنا القربان والضحية التي يجب أن تقدم كي ينعم أفراد العائلة بحياة أفضل خارج البلاد.

لم أستطع أن أكمل دراستي بعد أن أصبحت في السنة الأخيرة في كلية الطب، ففي عائلة زوجي يمنع على الزوجة العمل خارج المنزل، وبقيت أسيرة داخل

جدران المنزل عاجزةً حتى عن سؤال زوجي متى سوف يعود في إجازة أخرى، فكان يأتي للمنزل ثلاثة أيام كل شهر، وباقي الشهر أبقى أنا في المنزل ممرضة لوالدته المقعدة وطباخةً لوالده وعاملة نظافة لأبناء أخواته.

رُزقتُ بطفل جميل جداً وتمنيت كثيراً أن أسميه نذير، ولكن لم يكن لدي الجرأة حتى بالإفصاح عن ذلك، لكني لا أخفيك أني بقيت أناديه سراً باسمك الجميل كلما أتيحت لي الفرصة، ليعتصر قلبي عليك ولأتذكر أيامنا الجميلة ونظراتك التي كانت تشعل قلبي حباً وتنور دربي نوراً.

منذ عامين تقريباً وصلنا خبر مقتل زوجي على جبهات القتال المحتدمة، وأصبحت فوق تعاستي أرملة صغيرة، ولكن بعد استقرار أبي وعائلتي في ألمانيا شعروا بالذنب تجاهي وقرر والدي أن يوفر طريقاً آمناً لي ولطفلي الصغير بعيداً عن علم عائلة زوجي؛ لأنهم كانوا يخططون أن يبقوني خادمة لهم مدى الحياة بحجة أني أرعى طفل ابنهم المرحوم.

تمكنت من الهرب منهم مع طفلي إلى تركيا، وتطلّب ذلك الكثير من الوقت والجهد، إلى أن وصلت إلى ألمانيا واستقررت في منزل صغير مع طفلي، فبعد أن وصلت لم أستطع أن أقابل عائلتي فهم كانوا مصدر تعاستي وشقائي في الحياة، ولم أستطع أن أغفر ذنبهم وأنسى نظراتهم عندما باعوني بمبلغ من المال وسلموني إلى جلادي.

حياتي الآن أصبحت هادئة وبدأت بتعلم اللغة لكي أكمل حلمي وشغفي لأصبح

طبيبة أطفال.

أما بالنسبة لإيماني فأريد أن أطمئنك بأني فقدته منذ أن كنت أسيرة فلم يأتني من الإيمان إلا الخراب والجهل، فبه خسرتك أنت لعدم قدرتي على الارتباط بك لأننا كنا من دينين مختلفين، وبه تمت مقايضتي بقليل من المال تحت اسم الله.

أما اليوم لا أعتبر نفسي مدينة بشيء لأحد.

أدين فقط للحياة التي أعطتني فرصةً جديدة في مكان يتقبل الجميع كيفما شاؤوا من دون قيود ولا عادات متخلفة ولا إكراه على شيء، فهل أنت مثلي باقٍ على العهد الذي قطعناه يا حبيب القلب والهوى؟

أرسلت إليك صورتي لكي ترى مدى صدقي وحماسي للالتقاء بك، ونختم ما بدأناه منذ الصغر الطبيبة الجميلة ونذير الخير كما تمنينا، فلا دين ولا سياسة ولا أهل ولا عادات وتقاليد تقف بيننا اليوم.

بقينا نحن فقط.

دعنا نكسر قاعدة الدرويش هذه المرة ونقول له نعم هناك قدر يجمعنا.

المخلصة إيمان

تطلبت الرسالة والصدمة القليل من الوقت لنذير لاستيعابها، فبقي متيبساً ممسكاً بهاتفه وعاجزاً عن الكلام، فمدت يدها سلاف لتأخذ جواله ظناً منها أنه رأى شيئاً غريباً في الصور الملتقطة، فرأت الصورة وقرأت الرسالة ثم نظرت إلى نذير بعيون

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

تملؤها الحيرة والقلق ثم قال نذير: هل لي بطلب بسيط يا سلاف؟

أومأت سلاف رأسها بالإيجاب.

ـ هل تستطيعين كتابة ما أريد أن أمليه عليك رداً على هذه الرسالة؟

قالت بعد أن تحشرج صوتها: تفضل يا نذير.

قال اكتبي:

لا قدر يجمعنا...

أرسليها ثم احذفي كل هذه المحادثة وضعي الرقم على قائمة الحظر.

ثم أمسك عقد والدته ووضعه في يد سلاف وقال لها: إنه مُلكُكِ الآن ـ يا سلاف ـ إن قبلت بالزواج بي طبعاً بعد إذن عمي ومباركته لنا.

أمسكت سلاف العقد وضمته إلى صدرها وقالت: نعم موافقة. وغلبتها دمعات الفرح التي زينت مبسمها الجذاب ثم التفتت إلى والدها منتظرةً مباركته لها فما كان منه إلا قال: نعم موافق، ولكن على شرط صغير أن يحمل طفلكما الأول اسمي...

العُزَير.

انتهت

***

@MRT_OF_BOOK

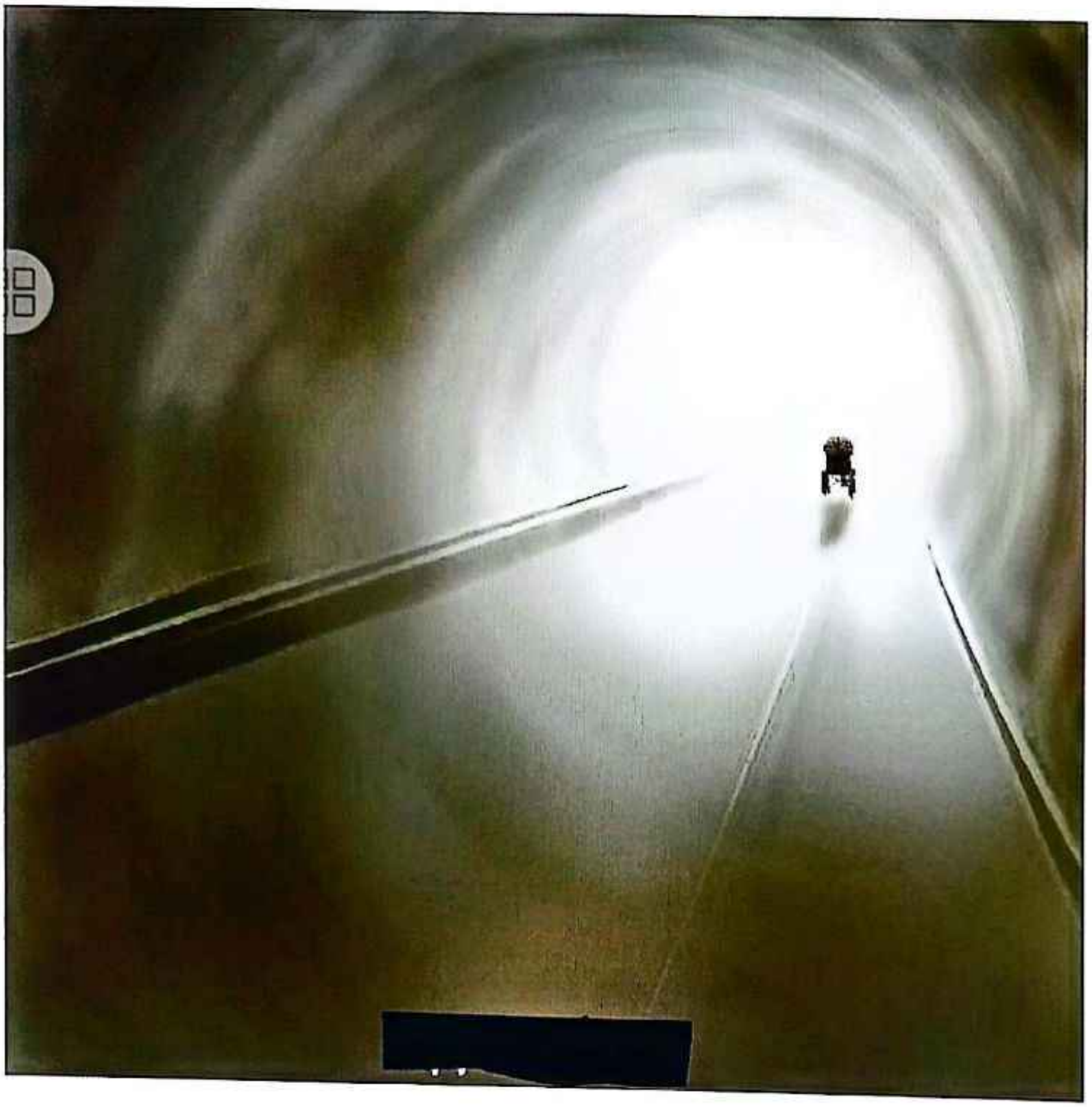

@ART_OF_BOOK